المدينة الميتة

غابرييل دانُّونتسو

ترجمة : أمارجي

مكتبة ٦٣٧

الكويت

مكتبة | 637

المدينةُ الميتة

مكتبة
t.me/t_pdf

تمّت التَّرجمة إلى العربيَّة عن طبعة
فراتِلّي ثُرِلِس ناشرون
ميلانو

La città morta
Gabriele D'Annunzio

الطبعة الأولى 2018
© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة
لِـ دار التكوين للتأليف والترجمة والـنشر
هاتـــــف: 00963 112236468
فاكـــــس: 00963 112257677
ص. ب: 11418، دمشق ـ سوريا
taakwen@yahoo.com

غابرييل دانونتسو

مكتبة | 637

المدينةُ المَيتة

تراجيديا

ترجمة: أمارجي

«إيروس، لا يُقهَر في معركة»

سوفوكليس

شخصيَّات المسرحيَّة

أِلسَّاندرو

ليوناردو

آنَّا

بيانكا ماريَّا

المربِّية

المكان أرضُ آرغوليذا[1] "العَطشى"- بالقرب من أطلال ميسينا[2] "الطَّافحة بالذَّهب".

---

(1) إحدى مقاطعات اليونان الجنوبيَّة وقد أخذت اسمها من اسم مدينتها الكبرى آرغو والتي بدورها سمِّيت كذلك تيمُّناً باسم مؤسِّسها آرغوس ابن الإله زيوس حسب الأساطير الإغريقيَّة، المترجم.

(2) موقع أثري يقع في سهول آرغو، على بعد 12كم من البحر، و9كم من مركز مدينة آرغو، المترجم.

الفصل الأوّل

حجرةٌ رحبةٌ ومُضاءة، مفتوحةٌ على إيوانٍ خارجيٍّ مزوَّدٍ بأعمدةٍ دَرَابزينٍ سوداء، ينبسطُ تجاهَ مدينة [بيلوبس][1] القديمة. مستوى الإيوان يرتفعُ عن بلاط الحجرة خمسَ درجاتٍ من الحجر المبنيِّ بشكلِ هرمٍ مجذوع القمَّة، كما لو أنَّه مدخلُ معبدٍ قديم. ثمَّة عمودان دُوريَّان[2] يسندان العارضة. يلوح في البعيد حصنُ المدينة الأثريُّ بجدرانه الضَّخمةِ المهيبةِ التي تعترضُها **بوَّابة الأُسُود**. في كلِّ حائطٍ جانبيٍّ من الحُجرة ثمَّةَ بابان يقودان إلى الشُّقق الدَّاخليَّة وإلى الدَّرج. ثمَّة طاولةٌ كبيرةٌ مشغولةٌ بالأوراق، والكتب، والتَّماثيل الصَّغيرة، والزَّهريَّات. وفي كلِّ مكانٍ من المساحات الخالية على امتداد الجدران، جُمِّعتْ تماثيل شمعيَّة، وزخارفُ معماريَّة نافرة صغيرة الحجوم، وشواهد تاريخيَّة مخطوطة، وقطعٌ نحتيَّة: هي شهاداتُ حياةٍ ماضية، وأطلالُ جَمالٍ آفِل. هذا الحشد الأبيض من الأشياء منحَ الحجرةَ مظهراً صافياً وصارماً، مظهراً ضريحيّاً في الغالب، في سكون الضَّوء الصَّباحيِّ.

---

(1) أو مدينة البيلوبيديِّين، وهم أبناء بيلوبس في الميثولوجيا الإغريقية، وبيلوبس هو ابن تانتالوس وديون، وحفيد زيوس من جهة أبيه، ويُعتبَر المؤسِّس للألعاب الأولمبيَّة حيث تختلط حوله الرِّوايات ما بين الأسطورة والحقيقة التَّاريخيَّة، المترجم.

(2) الدُّوري: نسبةً إلى سكَّان اليونان القدامى وأسلوبهم في الفن والعمارة، المترجم.

المشهد الأوّل

آنّا، جالسةً على آخرِ الدَّرجات المفضية إلى الإيوان، ومُسندةً رأسها على جذع أحد العمودَين، تُصغي بصمتٍ إلى **بيانكا ماريًّا** التي تقرأ. **المربِّية** تجلس على درجةٍ أخفض، عند أقدامِ المُستمعة، بوضعيَّةٍ خاملة، كأنَّها جاريةٌ مستخِفَّة. **بيانكا ماريًّا** تقف مستندةً إلى العمود الآخَر، مرتديةً إزاراً بسيطاً ومتناسقاً إغريقيَّ الطِّراز، وهي تحمل بين يديها كتاباً مفتوحاً – *مسرحيَّة أنتيجونه*[1] *لِسوفوكليس* – وتقرأ بصوتٍ مُتَوانٍ ومتثاقِل، يرتعشُ فيه من حينٍ إلى آخر قلقٌ مُبهمٌ لا يفوتُ المستمِعَ. ولكنَّ علائمَ الجزَع والاضطراب تلك ما تلبث أن تزولَ فتنتعشُ إذّاكَ همَّةُ القارئة.

بيانكا ماريًّا، تقرأ./

"إيروس، أيُّها المنتصر أبداً،

إيروس، يا مُلقي الحظوظ،

أنتَ يا من على خدِّ العذراء الطَّريِّ

تقيمُ مصيدتَك ومرصادَك،

مكتبة
t.me/t_pdf

(1) من أشهر المسرحيَّات الدِّراميَّة، ألَّفها سوفوكليس وعرضتْ لأوَّل مرَّة في أثينا سنة 442 قبل الميلاد. قام العديد من المؤلِّفين بتعديلها أواقتباس أجزاء منها؛ وأنتيجونه هي الإبنة الوحيدة بين الأبناء الذكور لأوديب، المترجم.

أيُّها الشَّريد وراء البحار، وعبرَ الأكواخ الرِّيفيَّة!
لا الأربابُ الخالدون بمنجاةٍ منك،
ولا البشر الزَّائلون كذلك، ومَن يحوزُكَ يخسرُ الحكمة.

"أنتَ الذي بعدلٍ تحكمُ
على النُّفوس الضَّالَّة بالهلاك؛
وتحضُّ لأجلِ تنفيذ حكمك قرابةَ الدَّم.
إنَّما ينتصرُ الإغواءُ الجليُّ في عيون عروسٍ
لاهية، قدَّامَ جميع الشَّرائع الكبرى.
ها إنَّ الإلاهة أفروديت تضحكُ بلا رحمة،
فأرتمي أنا نفسي إذ تفعل
خارجَ الشَّرائع؛ ولا يكون بمقدوري [هنا]
حبسُ ينابيع الدُّموع إذ أرى،
عِبرَ مخدع الزِّفاف، كيفَ تنامُ الأشياء
حين تلامسُ أنتيجونِه.

"أنتيجونِه

"انظروا إليَّ، يا أبناء الأرض الأبويَّة،
وأنا أدخلُ آخرَ الدُّروب،

وأتأمَّل بإعجابٍ آخر خيطِ شمس،

ولا شيء دون ذلك البتَّة! هوذا هاديس[1]، الذي ينوِّمُ كلَّ شيءٍ، يقتادُني حيَّةً نحو شاطئ الحياة الأخرى،

عاريةً من مراسم القران.

[آه] أبداً لن أترنَّمَ بكَ أيُّها النَّشيد الزَّفافيُّ،

لأنِّي سوف أتزوَّجُ الموت.

القارئة تصمت، كما لو أنَّ الكلمات اختنقت في حَنْجَرتها. يرتعشُ الكتاب في يديها.

آنّا

هل أنتِ مُتعبةٌ من القراءة، يا بيانكا ماريًّا؟

بيانكا ماريًّا

لعلِّي متعبةٌ قليلاً.... خواتيمُ هذا الرَّبيع المحتضر مضطرمةٌ جداً حدَّ أنَّها تبعثُ على التَّعب والاختناق، كما لو أنَّه صيفٌ عظيم.... ألا تشعرين بهذا أنتِ أيضاً، يا آنّا؟

تُغلقُ دفَّتي الكتاب.

آنّا

هل أغلقتِ الكتاب؟

---

(1) العالم السُّفلي أو مثوى الموتى في الأساطير الإغريقيَّة، المترجم.

بيانكا ماريًّا

لقد أغلقتُه.

تصمتان لحظة.

آنّا

هل ثمَّة ضوءٌ كثيرٌ في الحجرة؟

بيانكا ماريًّا

أجل، ثمَّة ضوءٌ كثير.

آنّا

هل تسطعُ الشَّمس على الإيوان؟

بيانكا ماريًّا

الآنَ هي تتحدَّرُ على الأعمدة، تكاد تلمسُ قفا عنُقِك.

آنّا

ترفعُ إحدى يديها لتلمسَ العمود.

ها هي ذي، إنِّي أحسُّها. لكم هو دافئٌ هذا الحجر! يبدو لي أنِّي ألمسُ شيئاً حيًّا.... هل أنتِ واقفةٌ في الشَّمس يا بيانكا ماريًّا؟ أذكُرُ: ذاتَ مرَّةٍ، استقبلتُ الأشعَّةَ بعينيَّ المطفأتين، فرأيتُ كمثلِ بُخارٍ أحمر، بالكادِ استطعتُ تمييزه، أو كمثلِ وميضٍ نجميٍّ متقطِّع يشبهُ ذلك الذي ينبعث عن صوّانيَّاتٍ قاسية، ومِيضٍ مُوجعٍ بعض الشَّيء.... أمَّا الآن فلا شيء: ظُلمةٌ تامَّة.

بيانكا ماريًا

مع ذلك، عيناكِ دوماً جميلتان وصافيتان؛ وفي الصَّباح تكونان مليئتين بالطَّراوة، كما لو أنَّ بقايا النُّعاسِ فوقَهما قطراتٌ من النَّدى.

آنَا

تغطِّي عينيها بكلتا راحتيها متَّكئةً بمرفقيها على الرُّكبتين.

آه، أن يستيقظ المرءُ كلَّ صباح، يا له أمراً مُرعباً! كلَّ ليلةٍ تقريباً أحلمُ بأنِّي أرى، بأنَّ مُعجزةً بصريَّةً فتَّحَتْ بؤبؤيَّ.... ثمَّ أصحو دائماً في قلب العَتمة، دائماً في تلك الدَّياجير الحالكة.... اليقظة هي أسوأ أحزاني، يا بيانكا ماريًا! من بين كلِّ الأشياء التي أتذكَّرها، من مرئيَّاتِ زمنِ الضَّوء السَّابقة: أذكرُ شكلَكِ، لونَكِ، تفاصيلكِ الأكثر دقَّةً؛ صورتُكِ بكاملها تبزُغُ عليَّ في الظُّلمة حتَّى لأوشكُ أن أمسَّها مسَّاً بيديَّ. أمَّا عن نفسي فلا أملكُ سوى ذكرى مشوَّشة أشبه ما تكون بذكرى شخصٍ متوفًى. ظلٌّ هائلٌ سقطَ على صورتي؛ الزَّمنُ [نفسُه] حجبها، كما نحجبُ نحنُ في أعماقنا ملامحَ من غابوا. وجهي تلاشى من ذاكرتي مثلما تلاشت وجوه أحبَّائي المدفونين.... وكلُّ جهدٍ عبث. أعرف حقَّ المعرفة أنَّ ذلك الوجه الذي أفلحُ في نهاية الأمر باستدعائه، ليس وجهي. آه، يا للكرب! وأنتِ، أيَّتها المربِّية، كم مرَّةً رجوتُكِ أن تقوديني إلى المرآة، حيث كنت أمكثُ وجبيني على البلَّور أحاول أن أتذكَّر، يستحوذُ عليَّ ترقُّبٌ مجهولٌ أحمق.... وكم مرَّةً، أيضاً، ضغطتُ وجهي براحتيَّ- كما أفعل الآن- علَّ آثاره تنطبعُ في طراوةِ يديَّ. آه، أحياناً يبدو لي أنِّي أرفعُ بيديَّ طبعةَ القِناع المدموغِ

على وجهي، مثلما تُرفَع الأقنعةُ المعمولةُ بالجِبس عن جثامين الموتى؛ إنَّه قناعٌ بلا حياة.

ببطء، تكشفُ وجهَها وتمدُّ راحتيها المقعَّرتين.

هل تُدركين كم هو فظيعٌ هذا الكرب؟

بيانكا ماريًّا

كم أنتِ جميلةٌ يا آنّا!

آنّا

الليلةَ الفائتة، رأيتُ حلماً غريباً، يفوقُ الوصف. رأيتُ كما لو أنَّ شيخوخةً مُباغِتة استولتْ على جميع أعضائي؛ فكنت أحسُّ بأخاديد التَّغضُّن تجوزُ جسدي بأكمله، وبشَعري يتساقطُ من رأسي إلى حِضني بخُصلٍ كبيرة، فيما أصابعي معقودةٌ ببعضها كأنَّها بكراتٌ حُلَّتْ خيطانُها؛ وكنتُ أحسُّ بوجنتيَّ تتجوَّفان وبشفتيَّ تلتحمان مِن وهنٍ؛ وبأنَّ جميع أحشائي تفقدُ أشكالها وتتفكَّك. صرتُ شبيهةً بعجوزٍ متسوِّلة أحتفظ بصورتها في ذاكرتي: آه، شبيهةً بتلك البائسة البلهاء التي كنت أراها كلَّ يومٍ - حين كنت ما أزال في بيتي وكانت أمِّي ما تزال على قيد الحياة- كلَّ يومٍ أمام سورِ الحديقة.... لعلَّك تذكرينها، أيَّتها المربِّية؟ كانوا ينادونها سيمونا؛ وكانت تُتَمتمُ دائماً نفسَ الأغنية راجيةً أن تجعلني أبتسم.... أيُّ حلمٍ غريبٍ هذا! أعرفُ: إنَّه جوابُ سؤالي الصَّعب عن مغزى وجودي في كلِّ مرَّةٍ أسمع فيها سيلانَ الحياة.... من داخلِ الصَّمتِ والعَتمة. آه، وكلَّما سمعتُ الدَّويَّ الرَّهيب للحياة وهي تسيل، تمنَّيت لو أنِّي أموت، يا بيانكا ماريًّا، لكي لا أسمعه مرَّةً أخرى. آه، أنتم لا يمكنكم إدراكُ هذا!

بيانكا ماريًّا

أنا أدركُ، يا آنّا. فحتّى بالنسبة إليَّ، السّاعات التي تمضي، في الضّوء، تمنحُ إحساساً طاغياً بالقلق. يبدو أنّنا نحن الاثنتين ننتظرُ شيئاً لن يأتي أبداً. لا شيء يقعُ ههنا، منذ أمدٍ بعيد.

آنّا

من يعلم؟

تصمتان لحظةً.

ما عدتُ أشعرُ بالشّمس.

بيانكا ماريًّا

تميلُ جهةَ الإيوان، وتنظرُ إلى السّماء.

ثمّةَ غيمةٌ تعبرُ، لكنّها خفيفة: غيمةٌ مذهّبة، بشكلِ جناح. كلَّ يومٍ تعبرُ الغيوم في زرقةِ السّماء: تصعدُ من هناكَ في الأسفل، من خليج آرغوس[1]، وتجتازُ مدينة كورينثوس[2]. أراها تولَد وتضمحلّ. بعضُها

---

(1) الاسم القديم لخليج كورنث في اليونان، المترجم.

(2) مدينة يونانية تقع ضمن برزخ كورنث الذي يصل شبه جزيرة المورة باليونان، وتبعاً للأسطورة فإنَّ مؤسِّس المدينة هو كورينثوس أحد الملوك من سلالة إله الشّمس هليوس، وثمّة أسطورة أخرى ترجع المدينة إلى الإلاهة إفيرا إبنة التّيتان أوقيانوس، حيث دُعيت قديماً بهذا الاسم (إفيرا) الذي ظهر في كتابات هوميروس وقد أشارت هذه الكتابات إلى أنَّ هذه المدينة كانت محكومة من نسل ملكها سيسيفوس، وأنّها شاركت في الحروب الطّروادية تحت قيادة أغاممنون، المترجم.

يكون في غايةِ الرَّوعة. مرَّاتٍ، تمكثُ طويلاً فوقَ الأفق، وإذ يهبطُ المساء تضطرمُ كمثلِ محرقةٍ عظيمة. ما مِن غيمةٍ بينها سكبتْ قطرةَ ماءٍ واحدةٍ بعد. كلُّ الحقول عطشى. بالأمس، انطلق الحجيجُ صوبَ مُصلَّى النَّبيِّ إيليا لاستسقائه الغيث. حيثما كان، نزلَ الجَدب؛ والرِّيح ترفعُ عالياً وبعيداً جدّاً غبارَ القبور.

آنّا

ألا تحبِّين هذا البلد، يا بيانكا ماريًّا؟

بيانكا ماريًّا

إنَّه بلدٌ حزينٌ للغاية. بل ثمَّة لحظاتٌ يبدو لي فيها باعثاً على الخوف والفزع. عندما صعدنا إلى ميسينا أوَّل مرَّةٍ أنا وأخي، منذ سنتين، كانت ظهيرةَ يومٍ متَّقدٍ من أيَّام آب. سهوب آرغو برمَّتها، من ورائنا، كانت بحيرةً من لهب؛ وكانت الجبال صفراء مُحمرَّة، كأنَّها لبوءاتٌ متوحِّشة. صعدنا على الأقدام، في صمتٍ، مَبهوتَين، بالكاد نلتقطُ أنفاسنا، والضَّوء يُعْشي عيوننا. بين حينٍ وآخر كانت دوَّامةٌ خرساء تنهضُ فجأةً على حافَّة الدَّرب، كمثل عمودٍ مشيَّدٍ من الغبار والعشب الجافِّ؛ وتتبعُنا بلا جلبة، بخطواتٍ شبح. بمجرَّد رؤيتها تقترب، لم أكن قادرةً على تجنُّبَ الوقوع في ذهولٍ غريزيٍّ، كما لو أنَّ تلك الأشكال الغامضة كانت تجدِّد في داخلي الهلع الذي بثَّتني إيَّاه في الماضي معرفةُ الخطايا القديمة. عند حافَّة حفرةٍ كبيرة، التقطَ ليوناردو جلدَ ثعبانٍ صغيرٍ وهو يقولُ ممازحاً: "لا بدَّ أنَّه كان

في قلبِ كليتِمْنسترا[1]"؛ ولفَّه كشريطٍ حولَ قبَّعتي. كانت الرِّيح تحرِّكُ الذَّيل الصَّغير البرَّاق أمامَ عينيَّ، فيصدر عنه حفيفٌ كحفيف ورقةٍ يابسة. عطشٌ فظيعٌ كان يكوي حلقي. بحثنا عن نبع بيرسِيا في الغور أسفلَ القلعة. لم أدرك ما كنت عليه من الضَّنك والعَياء إلَّا حين بدأتُ أخرجُ شيئاً فشيئاً من إغماءَتي مع كلِّ رشفةِ ماءٍ باردة على يديَّ وشفتيَّ. عندما استعدتُ حواسِّي، بدا لي أنِّي أقف في أرضٍ وهميَّة، خارجَ العالم، في ما وراءَ الموت. كانت الرِّيح تثور، ودوَّاماتُ الغبار تتلاحقُ نحو الأعلى لتتبدَّدَ في الشَّمس التي كانت تلتقمُها واحدةً واحدة. كربٌ هائلٌ سقطَ على روحي: كربٌ لم أعرفه قطُّ قبل ذلك، ولا يمكن أبداً نسيانُه. خُيِّل إليَّ أنِّي وصلتُ إلى منفىً دون أملٍ بالرُّجوع؛ وبدا كلُّ شيءٍ جنازيّاً أمام عينيَّ، وتملَّكني هاجسٌ مُكرب.... لن أنسى ما حييت تلك اللحظة، يا آنّا! غير أنَّ ليوناردو كان مفعماً بالبأس والأمل وهو يسندُني ويسحبُني.

---

(1) هي أميرة في الأساطير الإغريقيَّة، تزوَّجت من أغاممنون ملك ميسينا، وتزوجت أختها هيلين من أخيه منيلاوس. أنجبت كليتمنسترا إبناً هو أوريستيس وثلاث بنات هنَّ إيفيجينيا وإلكترا وكريسوثيميس. وتقول الأسطورة أنَّ أغاممنون قتل ابنته إيفيجينيا كي تسخِّر الآلهة الرِّيح لأسطول الإغريق المبحر لمهاجمة طروادة، وقد كرهت كليتمنسترا من أغاممنون تضحيته بابنتهما، وأجَّلتْ انتقامها عشر سنوات حتى تضع الحرب أوزارها؛ وبينما هي في انتظار عودة أغاممنون وقعت في حبِّ ابن عمِّه إيجيستوس، وعند عودة زوجها من طروادة قتلته هي وإيجيستوس؛ ثمَّ جاء أوريستيس فانتقم لمقتل أبيه بقتلها هي وإيجيستوس، المترجم.

كان متيقِّناً من أنَّه سيعثرُ على أميرَيه الأتريديَّين[1] محفوظَين في قبريهما لم يمسَسْهما سوءٌ. كان يقول لي ضاحكاً: "أنتِ تبدين شبيهةً بإيفيجينيا[2] العذراء وهي على وشك أن يُضحَّى بها!" مع ذلك، لم يرفع انشراحُه وثقتُه من عزيمتي.... أنتِ ترين، يا آنَا، أنَّ توقُّعَه يخيبُ يوماً بعد يوم. هذه الأرض الخبيثة، التي لم تتوقَّف لحظةً عن تعذيبه، لم تمنحه إلى اليوم سوى هذه الحمَّى التي تتآكلُه. لو أنَّك تستطيعين رؤيته، يا آنَا، لملأ قلبَكِ الجزع....

آنَا

أنتِ محقَّة. صوتُه، في بعض الأحيان، يبدو مثل شعلةٍ تختنق. بالأمسِ إذْ تحسَّستُ يدَه المهزولة والجافَّة، عرفتُ أنَّه مريضٌ حقَّاً. كان على مقربةٍ منِّي حين دخلتِ علينا: كان يهتزُّ كمن تملَّكه الخوف. وفيما أنتِ هناك، كنت أسمعه يرتعدُ من حينٍ إلى آخر كما لو كانت كلماتك تزيدُ من ألمه. إنَّ لديَّ إدراكاً فريداً حيال هذه الأمور، يا بيانكا ماريًّا. صحيحٌ أنَّ عينيَّ موصدتان، ولكنَّ روحي تسمع. وقد سمعتُ بالأمس ارتعاشَ أعصابِه البائسة وهي تتألَّم، آه وأيُّ ألم! لقد أردتُ إخبارَكِ بهذا، يا بيانكا ماريًّا.

---

(1) هي التَّسمية المتوارثة لأبناء أتريوس وأحفاده، والأميران الأتريديَّان هما ابنا أتريوس أغاممنون الملقَّب بأتريدوس الأكبر لأنَّه الأكبر سنَّاً، ومنيلاوس الملقَّب بأتريدوس الأصغر، المترجم.

(2) مرَّ ذكرها سابقاً.

بيانكا ماريًا

بقلقٍ وجزعٍ ظاهرَين.

تعتقدين أنَّ أخي مريضٌ حقًّا؟

آنَّا

ربَّما كان مرهقاً وحسب. قد تكون قواهُ مستنفَدة. أو أنَّ فكره يُضنيه من أمرِ عشقٍ مثلاً. لعلَّه لا ينام. أتعلمين إن كان ينام أم لا؟

بيانكا ماريًا

لا أعلم يا آنَّا. منذ مدَّةٍ هجرَ الحجرةَ الملاصقة لحجرتي حيث اعتادَ أن ينام. في البداية كان بمقدوري معرفة أنَّه يغطُّ في نومٍ عميقٍ من صوت أنفاسه الوديعة. الآن هو أبعد من أن أُحِسَّ منه تلك الوداعة.

آنَّا

ظنِّي، أنَّه لا ينام.

بيانكا ماريًا

ربَّما. أشفارُ عينيه منتفخة ومحمرَّة. لكنَّه دائماً وسطَ ذلك الغبار المُحنِق؛ إنَّه دائماً هناك، منحنياً ينقِّب في الخرائب، ويُخرِجُ بقايا الموتى ومخلَّفاتهم، مستنشقاً نتْنَ القبور. آه، أيُّ تصميمٍ عجيبٍ لديه! أنا متيقِّنةٌ تماماً من أنَّه لن يمنحَ نفسَه هدنةً قبل أن يقتلع من الأرض السِّرَّ الذي يبحثُ عنه.

آنا

يبدو أنَّ في داخله سرّاً ما.

بيانكا ماريًّا

أيُّ سرٍّ؟

آنا

من يعلم؟

لحظةُ صمتٍ.

بيانكا ماريًّا

لقد تبدَّلت طبائعه كثيراً منذ زمن. كان في غاية العذوبة معي، في الماضي! كنتُ أنا كلَّ شيءٍ بالنسبة إليه: رفيقةَ صباه الوحيدة. كثيراً ما رأيته متعباً ومُضنى، لكن ليس كحاله الآن! كان يُريح قلبَه المتعب على ركبتيَّ، كمثلِ طفلٍ صغير. لم يعد يفعل ذلك. بل كلَّما دنوتُ منه، أوصدَ قلبَه في وجهي. ذات مرَّةٍ، عندما صعَّدَ تفكيرُه المُنهكُ الألمَ إلى جبهتِه، أراد منِّي أن أضغطَ صُدغَيه بأصابعي علِّي أسكِّن قليلاً ذلك النَّبضَ الموجع، ولكم كان شاكراً لي هذا التَّطبيب العذب. لم يعد يفعل ذلك. يبدو لي أنَّه يهربُ منِّي. أنتِ نفسكِ قلتِ لي، يا آنا، أنَّ كلماتي بالأمس كانت تعذبُه....

آنا

بنبرةِ صوتٍ نافذة.

ربَّما كان يشعر بأنَّ شيئاً ما فيكِ قد تغيَّر، يا بيانكا ماريًّا.

بيانكا ماريًّا

بانزعاجٍ واضح.

فيَّ أنا؟

آنّا

بنفسِ النَّبرة.

لعلَّه يتكهَّنُ بأسبابِ كآبتِك، ويشجى لذلك.

بيانكا ماريًّا

أسباب كآبتي؟

آنّا

تحاول أن تواري نفاذَ بصيرتها.

أنتِ لا تحبِّين هذه الأرض، وترغبين في الرَّحيل.

بيانكا ماريًّا

إنَّني ـ الآنَ ودائماً ـ طوعُ إرادته.

آنّا

ها هي الشَّمس من جديد. غمامتُكِ قد عبرتْ. يا لِهذا الحَرِّ! أكاد أحترق. لُطفاً، أعطني يدكِ يا بيانكا ماريًّا. أعينيني على النُّهوض ونزولِ الدَّرجات.

بيانكا ماريًّا تمدُّ يدَها نحوها، تُنهضُها وتقودُها إلى الأسفل عبر الدَّرجات. **آنّا**، فيما هيَ ممسكةٌ بيد بيانكا ماريًّا على نحوٍ كما لو أنَّها تجسُّ نبضَ معصمها، تلقي عليها سؤالاً مباغتاً.

هل رأيتِ زوجي هذا الصَّباح، قبل أن يغادر؟

بيانكا ماريًّا

تتردَّدُ هُنيهةً.

أجل، لقد رأيته، برفقةِ أخي.

آنّا

أوَتعلمين أين ذهب؟

بيانكا ماريًّا

لقد أسرجَ حصانَه؛ ومضى بعيداً عبرَ طريق آرغو، وحدَه.

آنّا

منذ مدَّةٍ وهو عاكفٌ عن الشِّعر. يغيبُ ساعاتٍ طِوال؛ وحين يعود، يبقى صامتاً. هل تذكرين يا بيانكا ماريًّا الأسابيع الأولى من وصولنا؟ هل تذكرين كم كان متحمِّساً؟ هو أيضاً، كما ليوناردو، كانت لديه كنوزٌ هائلة ليكتشفها؛ كنوزٌ مخبوءةٌ في روحِه. لقد بدا أنَّ هذه الأرض قادرةٌ، أكثر من أيَّة أرضٍ أخرى، على إثارةِ فِكره. كانت موجةُ الشِّعر غزيرةً في داخله، فكانَ يسكبُها بلا انقطاعٍ، في كلِّ كلمةٍ من كلماتِه. هل تذكرين؟ إنَّه الآن صموتٌ ومستغرِق.

بيانكا ماريًّا

بشيءٍ من القلق.

ربَّما يفكِّرُ في عملٍ أدبيٍّ كبير. ربَّما يحملُ في داخلِه ثقلَ فكرةٍ عظيمةٍ لم تتشكَّل بعد. لعلَّ جنِّيَّةَ شِعرِه على وشك أن تنجبَ إلى النُّور واحداً من مخلوقاتها الرَّائعة.

آنّا

أعرفُ أنَّه يتحدَّثُ إليكِ بطيبةِ خاطرٍ يا بيانكا ماريًا. ألم يُفضِ إليكِ بسرٍّ ما؟

بيانكا ماريًا

بتبدُّلٍ طفيفٍ في صوتها.

وأيُّ سرٍّ ذاك الذي سيُفضي به إليَّ إن لم يكن قد أفضى بـه إليـك أوَّلاً يا عزيزتي آنّا؟ أنتِ قريبةٌ جدّاً مِن روحه، قريبةٌ جداً.

آنّا

أنا قريبةٌ مِن روحه قُربَ المُستعطي من الأبواب. ظنّي أنّه لم يعـد يملك شيئاً ليعطيني إيّاه.

بيانكا ماريًا

بعذوبة.

لمَ تقولين هذه الأشياء؟ أنا أرى عينيه حين تتلفَّتان نحـوَك. نظراتُـه تردِّد دوماً أنَّ لا شيء عنده أغلى منكِ.... ولا شيء يمكن أن يُـضاهي جمالَكِ، يا آنّا!

آنّا

يبدو لي أنَّك تعزِّينني بفقدان شيءٍ ما....

بيانكا ماريًا

لم تقولين هذا؟

آنّا

بإصغاء.

هل سمعتِ؟ لقد عاد ألِسّاندرو. انظري من الإيوان إن كان آتياً أيّتها المربّية.

المربّية، وقد بقيت طوال الوقت جالسةً على الدَّرجات غير متأثّرة بشيء، تنهض الآن وتخرج إلى الإيوان لتنظر.

المربّية

ما من أحدٍ على الطَّريق.

آنّا

خُيِّلَ إليَّ أنّي أسمع خببَ حصانِه. أتُراه ما زال بعيداً؟ لقد تأخَّر الوقت.

بيانكا ماريًّا

من نافذة غرفتي تُرى الطَّريقُ بأكملها حتَّى مشارفِ آرغو. سوف أذهب لأرى إن كان يتمشَّى هناك.

تغادر من الباب الثّاني على اليمين.

المشهد الثاني

المربِّية تدنو من آنَا التي تغطِّي وجهها بيديها.

آنَا

لكم أودُّ البكاء، أيَّتها المربِّية.

المربِّية

تأخذ يدي **آنَا** بين راحتيها وتقبِّلهما.

ما الذي يجثمُ على صدرِك، يا بُنيَّتي؟

آنَا

لا أعلم: شيءٌ ما يعتصرُني، كأنَّه عُقدةٌ تضيقُ عليَّ؛ ثمَّ.... خوفٌ لا أعلم مصدَرَه....

المربِّية

خوف؟

آنَا

لا أعلم.... دعيني أجلس. ابقي بقُربي.

تجلس. **المربِّية** تجثو على ركبتيها عند أقدام سيِّدتها.
آنَا، بحركةٍ فُجائيَّة، تميل برأسها نحوَها.

أمعني النَّظر، أيَّتها المربِّية، إن كان ثمَّة بعض الشَّعر المُبيض. لا بدَّ وأن يكون لديَّ بضع شعراتٍ بيضٍ هنا أو هناك. أمعني النَّظر جيِّداً أيَّتها المربِّية: هنا، فوق الصُّدغَين؛ ههنا، عند القذال. أخبريني بصدقٍ؛ هل وجدتها؟ شعرةٌ واحدةٌ أم أكثر؟ أثمَّة الكثير؟

المربِّية

وقد غاصت أصابعها في شَعر آنّا.

لا شيء.

آنّا

لا شيء، حقّاً؟ هل تقولين الصِّدق؟

المربِّية

لا شيء.

آنّا

ما زلتُ شابَّةً إذن؟ قولي لي: أما زلتُ أبدو شابَّةً؟ قولي الحقيقة.

المربِّية

أنت في أوجِ الشَّباب، ما تزالين.

آنّا

قولي الحقيقة!

المربِّية

لماذا يجب عليَّ أن أخدعك؟ أنتِ بيضاء كهذه التَّماثيل. ما مِن امرأةٍ في مثل بياضِك....

آنّا

هذا صحيح. هكذا قال لي ألِسَّاندرو عندما تحدَّثنا أوَّل مرَّةٍ، منذ زمنٍ بعيد. آه، بسبب هذا أصبحتُ عمياء، مثل التَّماثيل!... ما الذي قالته بيانكا ماريًّا، آنفاً، عن عينيَّ؟ حدِّقي في عينيَّ أيَّتها المربِّية. أليستا كمثلِ حَصاتين صلدتين؟

المربِّية

بل هما نقيَّتان كمثل حجرين كريمين.

آنّا

إنَّهما مُطفأتان أيَّتها المربِّية؛ إنَّهما خاويتان. ألا تثيران نفورَكِ عندما تحدِّقين فيهما؟ ألا تولِّدان فيكِ بعضَ الخوف؟ قولي الحقيقة.

المربِّية

آه، بحقِّك اصمتي. إنَّهما تنبضان بالحياة، إنَّهما حيَّتان. يوماً ما، وبفضلٍ من الله، سوفَ يعود إليهما فجأةً النُّورُ الذي فقدتاه.

آنّا

ليس بعد اليوم! ليس بعد اليوم!

المربِّية

يوماً ما، وعلى حين غرَّة: ربَّما غداً....

آنّا

ليس بعد اليوم! ليس بعد اليوم!

المربِّية

من يعلم مشيئةَ الله؟ ولمَ الله تركَ عينيكِ جميلتين هكذا إنْ كان لا يريد أن ينيرَهما من جديد؟

آنّا

ليس بعد اليوم!

المربِّية

إنْ كان الأملُ قد انطفأ حقّاً، فلماذا يرتعشُ قلبي كلَّ صباحٍ عندما تندهينَ لي؟ لماذا أهرعُ نحوَك دوماً يحدوني ذاتُ التَّرقُّب إذ أشرِّع نافذةَ غرفتِك لكي أدعَ الضَّوء يدخلُ، في كلِّ صباح؟

آنّا

برعشةٍ عميقة.

هيهات!

المربِّية

أنتِ كذلك، ألا تحلمينَ كلَّ ليلةٍ بأنَّ البصرَ عاد إلى بؤبؤيكِ؟

آنّا

أوه، أحلام!

المربِّية

آمني بالأحلام! آمني بالأحلام!

آنّا

ها هي بيانكا ماريًّا قادمة. اذهبي، اذهبي أيَّتها المربِّية.

المربِّية تقبِّل يديها، تنهض وتغادر من الباب الثَّاني على اليسار، وعلى شفتيها صلاةٌ صامتة.

المشهد الثالث

تدخلُ بيانكا ماريًا.

آنّا

هل ألسَّاندرو قادم؟

بيانكا ماريًا

لا أحد يُلمَحُ على طريق آرغو. لاحتْ في البعيد غيمةٌ من الغبار؛ لكنَّه كان قطيعاً من الماعز. لعلَّه حادَ عن الطَّريق عائداً عبرَ الرِّيف. أو لعلَّه انحدرَ صوبَ نبع بيرسيبا....

ترتقي الدَّرجات وتلقي نظرةً من الإيوان، مِن بين العمودين، في مواجهة الشَّمس.

العملُ محتدمٌ في الآغورا[1]. بالأمس عُثر على خمس لوحاتٍ جنازيَّة، هي قرائن لا لبس فيها. ثمَّة غمامةٌ كبيرة من الغبار تصعد من خلف الأسوار. غبارٌ مورَّدٌ؛ كأنَّه يشتعلُ، في الشَّمس. آه، يقيناً أنَّه يخترقُ الدَّمَ كسمٍّ زُعاف.... وطبعاً، ليوناردو هناك منكبٌّ على الأرض، ينقِّبُ بيديه العاريتين. ذلك أنَّه يخشى من صدمةِ المعدن أن تهشِّمَ اللُّقى الهشَّة.

تميلُ نحو العمياء.

---

(1) الآغورا في المدن الإغريقيَّة القديمة هي السَّاحة حيث تُقامُ الأسواق ويقيم النَّاس محافلهم، المترجم.

لو أنَّكِ ترين بأيِّ رقَّةٍ يرفعُ كلَّ قطعةٍ من غلافِها الأرضيِّ! لحسبتِ أنَّه يهمُّ أن يقشِّرَ فاكهةً نفيسةً وكلُّه خشيةٌ من أن يفقدَ قطرةً من عصارتِها.

لحظة صمتٍ. تهبط الدَّرجات متَّجهةً، بنعومةٍ مباغِتة، نحو العمياء القابعة في ضوء الشَّمس.

ألا ترغبين في برتقالةٍ مضمَّخةٍ بالعطر، يا آنَّا؟ برتقالةٍ لا تجدينها الآن إلَّا في حديقةٍ صقِلِّيَّة؟

آنَّا

تحرِّكُ يديها في الهواء كما لو أنَّها تريد سحبَ الفتاة نحوها.

أيُّ صوتٍ غريبٍ تبثُّه شفتاكِ الآن يا بيانكا ماريًّا! يبدو لي صوتاً جديداً أسمعه لأوَّل مرَّة: كمن كانت نائمةً ثمَّ استيقظت فجأة....

بيانكا ماريًّا

هل تُدهشُكِ رغبتي؟ ألا تشتهين أن تكون على ركبتيكِ قُفَّةٌ من الفاكهة؟ آه، لكنتُ التهمتُها بشراهةٍ لا توصف! كنَّا في سيراكوزا[1] نتمشَّى بين أحراش البرتقال، فيما البحرُ يتلألأ من بين الجذوع أمامَ عيوننا: كانت الأشجار تحملُ على أغصانها الثِّمار القديمة مع الأزهار الحديثة؛ وكانت التُّويجات تتساقط على رؤوسنا كندفِ ثلجٍ معطَّرة؛ ونحن نقضمُ الهبرةَ العصاريَّة الشَّهيَّة كما يُقضَم الخبز.

---

(1) مدينة في جزيرة صقلية الإيطاليَّة، المترجم.

آنّا

تمدُّ ذراعيها من جديدٍ لتجذبها، فيما الأخرى لا تزال بعيدةً بعض الشَّيء.

هناكَ تحبِّين أن تعيشي. هناكَ، هناكَ هي الغبطةُ الأرضيَّة! كينونتُكِ برمَّتها تطلبُ تلك الغبطة، تحتاجُ تلك الغبطة. آه، أحسبُ أنَّكِ تتوقَّدين شباباً اليوم! الرَّغبة في الحياة تشعُّ منكِ كما يشعُّ الدِّفء من الموقد. هل لي أن أدفِّئ يديَّ البائستين!

بيانكا ماريًّا تدنو منها، وتجلس عند قدميها على موطئٍ خشبيٍّ منخفض. إذَّاكَ تلمسُ آنّا خدَّيها فتعتريها رعشةٌ بيِّنة.

بيانكا ماريًّا

لمَ يداكِ باردتان يا آنّا؟

آنّا

وجهُكِ كلُّه ينبضُ بوجيبٍ عنيف.

بيانكا ماريًّا

لقد لفحتني الشَّمس. هناك عند نافذتي، مكثتُ تحتَ الشَّمس أراقبُ الطَّريق. كانَ رفُّ النَّافذة الحجريُّ يكادُ يشتعل. ههنا، كذلك، الغرفةُ بأسرِها الآنَ مغزوَّةٌ بالشَّمس. أشعَّتها تصلُ إلى

هناك، إلى قدمَي هِرمِز[1]. إنَّنا جالستان على حافَّةِ جدولٍ ذهبيٍّ. انحني إلى الأمام قليلاً.

آنّا

تتحسَّسُ بأصابعها وجه بيانكا ماريًّا وشَعرَها بافتتان.

كم تعشقين الشَّمس! كم تعشقين الحياة! لقد سمعتُ ألِسَّاندرو يخبركِ مرَّةً أنَّك تشبهين فيكتوريا[2] وهي تهمُّ أن تطير. أذكُرُ.... في أثينا.... كان ثمَّة تمثالٌ لها رقيقٌ ومندفِع، منحوتٌ في مرمرٍ عذبٍ كأنَّه العاج، وكان يثيرُ الرَّغبةَ في التَّحليق، في شطحٍ هوائيٍّ بلا نهاية.... أذكُرُ: الرَّأسَ الصَّغيرةَ مائلةً في حنيةِ الجناح المنسدلِ بهدوءٍ من العضُد. كان ألِسَّاندرو يقول أنَّ لهفةَ الطَّيران كانت تنضحُ من كلِّ طيَّاتِ الإزار، وأنَّه ما من تصويرٍ آخر يعرضُ أجملَ من هذا صفةَ الخفَّةِ الإلهيَّة.... لقد عشنا سويعاتٍ لا تُنسى في سِحرِ فتوَّتِه الفردوسيِّ. كلَّ يومٍ كنَّا نصعدُ صوبَ الأكروبوليس لرؤيتها.... أحقًّا أنَّكِ تشبهينها يا بيانكا ماريًّا؟

---

(1) المقصود إلى أسفل تمثال هِرمِز؛ وهِرمز هو في أساطير الإغريق رسول الآلهة اليونان ابن زيوس ومايا بنت التيتان أطلس. ينقل هرمز أرواح الموتى إلى العالم السفلي، وقد عُرفَ أيضاً بأنَّه إله التجارة وحامي القوافل والقطعان ومعبود الرِّياضيِّين لكونه حامي السَّاحات الرِّياضيَّة بنوعيها الجمنازيوم والاستاديوم. جُسِّد هرمز في الفنون الإغريقية الأولى على أنه رجل ناضج ذو لحية، أما في الفنون الكلاسيكية فقد جُسد على أنه شاب رياضي أمرد، المترجم.

(2) هي الإلاهة التي تمثِّل النَّصر في الحروب حسب الأساطير الرُّومانيَّة، وقد صوِّرتْ بهيئة امرأةٍ شابَّة مجنَّحة، المترجم.

بيانكا ماريًّا

منزعجةً من السُّلوك الغريب للعمياء الماضية في لمسها.

أنا بلا أجنحة. إنَّكِ تبحثين سُدىً.

آنًّا

من يعلم! من يعلم! إنَّ الأجنحة التي لا تخفق هي تلك التي تطير أعلى وأبعد. كلُّ عذراء يمكن أن تكون رسولة....

لحظة صمت. تستمرُّ في مسِّ **بيانكا ماريًّا** مسًّا خفيفاً بأناملها. تقوم هذه بحركةٍ عفويَّة كأنَّها تودُّ أن تتملَّص منها.

هل يضايقُكِ أنِّي ألمسُكِ؟ إنَّني أتخيَّل كم أنت جميلة، وأودُّ لو أجسِّمَ جمالَكِ. هل تنفِّرُكِ يداي؟

بيانكا ماريًّا

تأخذ يدَي **آنًّا** في راحتيها وتقبِّلهما.

لا، لا، آنًّا.... إنَّما لا أعرف أن أصف لكِ الشُّعور الذي تبعثانه فيَّ. لكأنَّ أصابعَكِ ترى.... لا أعرف: أشعر أنَّني تحت سطوةِ عينٍ تلحُّ عليَّ وتضغط.... كلُّ إصبعٍ من أصابعك هو كمثل حدقةٍ إذ يلمسني.... آه، كما لو أنَّ روحَكِ برمَّتها تتحدَّرُ إلى أقصى أصابعِك، فيفقدُ لحمُكِ هناكَ طبيعته البشريَّة. إنَّ لونَ هذه الأوردة لا يمكن التَّعبير عنه....

تضعُ شفتيها في جوف اليد اليسرى، مرتعشةً.

ألستِ تشعرين بشفتيَّ فوقَ روحِك؟

آنّا

بإحساسٍ سرّيٍّ باليأس.

إنّهما تحرقان، يا بيانكا ماريًّا. ولهما وزنٌ، كأنَّ الحياة بمُجمل وفرتها قد تحشَّدت فيهما. آه، لا بدَّ وأن تكونا مغريتَين! كلُّ الوعود وكلُّ الإغواءات لا بدَّ وأن تكون محضونةً فيهما.

بيانكا ماريًّا

أنتِ تشوِّشين روحي.... لكنَّ حياتي لا تعدو كونها حلقةً مُغلَّقةً ومُقتضبة، وهكذا ستكون دوماً. منذ لحظاتٍ كنت أقرأ لكِ *الأنتيجونه*. بين لحظةٍ وأخرى كان يخيَّل إليَّ أنّي أقرأ قدري. أنا أيضاً امرأةٌ مكرَّسةٌ لأخيها، ورهينةٌ لذلك النَّذر.

آنّا

برقَّةٍ شغوفٍ ومضطربة.

أكثر قوَّةً هي إرادةُ الحياة لديكِ، مِن أن تُفنيها أيَّةُ تضحية. أنتِ مُحتاجةٌ إلى الحياة، مُحتاجةٌ إلى الغبطة، إلى قضمِ الفاكهة، ونزعِ بتلاتِ الأزهار، أيَّتها الغالية. يُخيَّل إليَّ أنّي أسمعُ ناراً تضطرمُ في داخلِك. دمُكِ بأكمله يضربُ في وجهك، أوه - ياللعجب.... لم يسبق أن عرفتُ خفقاناً أشدَّ من هذا. قلبُكِ، قلبُكِ....

تتلمَّسُ في صدرِها مكانَ القلب، وتنحني لتُنصِت إليه. تنطقُ بصوتٍ أكثر خضوعاً، يشوبه بعضَ الغموض، الكلمات التّالية.

رهيبٌ هو، قلبُكِ هذا. كأنّه يشتهي العالَم. يا لهُ دُواراً مخبولاً من الشَّهوات....

بيانكا ماريًّا

أوه آنَّا!

ترتعشُ وتنكمشُ تحت يدَي العمياء، كما لو تحتَ تعذيبٍ بطيءٍ يُتلفُ أعصابها وينهكُها.

آنَّا

لا ترتعشي! أنا لكِ مثل أختٍ ميتةٍ عادت إلى الحياة. أنا الأخرى خفقَ دمي هكذا ذاتَ زمنٍ؛ ورغبتي هي الأخرى كانت بلا حدود، تِجاهَ روعةِ الحياة. أنا أعرف بماذا تحلمين، وممَّا تتألَّمين، وماذا تترقَّبين.... السَّعادة موجودةٌ، موجودةٌ على الأرض؛ مُعلَّقةٌ فوقَ كلِّ هامَةٍ ساعتُها. إنَّكِ تتبعين بكلِّ إخلاصٍ أخيكِ الذي يقطنُ الأطلالَ وينبشُ القبور؛ لكن لا ينبغي لكِ أن تتخلَّي عن ساعتِك. ثمَّة قوَّةٌ لا محيص عنها قد نهضتْ في داخلِك، دون إنذارٍ، ولن يكون بمقدورك بعد اليوم كبحها. ولئن نجحتِ، مع هذا، في بترِها، فإنَّ ألف برعمٍ سوف يفرِّخُ عن الجَذر. يتحتَّمُ أن تُذعني لها.

بيانكا ماريًّا تُخفي وجهها في حِجر العمياء، وتمكث في تلك الوضعيَّة، مرتعشةً.

لا ترتعشي! أنا لكِ مثلُ أختٍ ميتة، تنظرُ إليكِ من وراء الموت. قد أبدو لكِ مثل ظلٍّ؛ ذلك أنِّي في عالمٍ آخر. أنتِ ترين ما لا أراه. وأنا أرى ما لا ترَين. لأجل هذا تشعرين أنَّ ثمَّة هاويةً تفصلك عنِّي. وليس يمكنُكِ تركُ روحِك تنثالُ على روحي، كما تتركين رأسكِ على ركبتيَّ. أليس كذلك؟

تضعُ يديها على شَعر المُنحنية، وتُداعبُه؛ ثمَّ تتركهما تغوصان فيه.

يا لِشَعرِك! يا لِشَعرِك! إنَّه عذبٌ على الأصابع عذوبةَ ماءٍ دافئٍ يجري. يا لِوفرَتِه! يا لِطولِه! لكم هو باهرٌ ورائع. يقيناً، إذا ما أنتِ حَلَلتيه، انسدلَ عليكِ مثل ثوبٍ حتَّى القدمين. آه، ها هوَ ذا يُحَلُّ!

الشَّعر المحلول ينثالُ على كتفَي **بيانكا ماريًّا**، وينسكب إلى الأسفل على ثوبِ **آنَّا**، منساباً كمثل موجةٍ غزيرة. يدا العمياء تقتفيان جداولَه.

يا له سيلاً رائعاً! إنَّه يغطِّي جسدَكِ كلَّه. يصلُ إلى الأرض. يغطِّي جسدي كذلك. يا لِوفرَتِه! يا لِوفرَتِه! آه، له عطرٌ، له ألف عطر.... هذا السَّيلُ الطَّافح بالزُّهور!... آه، أنتِ كلُّكِ جميلة؛ لقد حزتِ كلَّ الهبات!

تضعُ يديها على صُدغَي المُنحنية، على وجنتيها، برعشةٍ ولفتةٍ مُلتاعة، كأنَّما تحسُّ بالضَّياع. صوتُها يُصبحُ مُضبَّباً.

كيف يمكنُ أن تتخلِّي عن الشَّيء الذي تحبِّين؟ كيف يمكنُ أن تظلِّي في الظِّلِّ أنتِ المخلوقةُ لأجل أن تَمنحي الغبطة؟ ها إنَّ ما كان نائماً في أعماقك يستيقظُ الآنَ. ها أنتِ تعترفين؛ أليس كذلك؟ لقد أصغيتُ إلى صوت خطواتِك مرَّاتٍ عدَّة. أنتِ تتحرَّكين كما لو أنَّكِ تقتفين لحناً معلوماً في داخلِك.... آه لو أستطيع أنا نفسي أن أحدِّثك بلسان السَّعادة، يا بيانكا ماريًّا!

بيانكا ماريًّا تنشِجُ، ووجهها مخفيٌّ تحتَ شَعرِها، غاصَّةً بالدَّمع.

أتبكين؟

تبحثُ بين عُقراتِ شعرها عن جَفنيها بغيةَ لمسِ دموعها.

أنتِ تبكين! أنتِ تبكين! آه يا لِبؤسنا!

لحظة صمت. **بيانكا ماريًّا** تنشِجُ، بذات الطَّريقة. **آنًّا** تلتفتُ مضطربةً نحو أحد الأبواب. قلقٌ كبيرٌ يظهرُ على وجهها، إذ تسمعُ خطواً سريعاً على الدَّرج.

إنَّه ألِسَّاندرو!

بيانكا ماريًّا تنهضُ في وثبةٍ على قدميها، ووجهها مغطًّى بشعرِها المنسدل على كامل جسمها، مُنفعلةً وذاهلة، تحتَ ضوء الشَّمس.

مكتبة
t.me/t_pdf

المشهد الرَّابع

يدخلُ أِلسَّاندرو من الباب الأوَّل على اليمين، حاملاً بين يديه حُزمةً من الأزهار البريَّة، مبهورَ الأنفاس قليلاً ومُلَوَّحاً بالشَّمس. يتمهَّل إذ يرى بيانكا ماريًّا على تلك الهيئة، والقلق بادٍ على وجهه.

آنّا

بصوتٍ استعادَ هدوءه وعذوبته.

من أيِّ دربٍ أتيتَ يا أِلسَّاندرو؟ لقد انتظرناكَ طويلاً. بيانكا ماريًّا مكثت عند نافذتها تراقب طريق آرغو علَّها تتبيَّن حصانَك؛ لكنَّك لم تظهر. من أيِّ دربٍ أتيت؟

أِلسَّاندرو

بصوتٍ رائقٍ ومُشرق، مفعمٍ بنبراتٍ لحنيَّةٍ بسيطةٍ ومعتدلة تشفُّ عن قوَّةٍ عاطفةٍ عَفَويَّةٍ وعميقة في كلِّ كلمةٍ ممَّا يقول.

أتيتُ على حصاني عبر الرِّيف، شاءت الصُّدفة. عبَرتُ نهر إيناكوس[1] الذي ليس فيه قطرةٌ واحدة. الأرضُ برمَّتها مغطَّاةٌ بأزهارٍ

---

(1) أشاد به سوفوكليس في أحد أعماله؛ وتقول الأسطورة الإغريقية أنَّ إيناكوس هو أبُ "إيو" الشَّابَّة التي وقع "زيوس" في حبِّها، وحوَّلتها الإلاهة "هيرا" زوجة زيوس إلى بقرة بسبب غيرتها، فجُنَّ إيناكوس من الغضب لما حصل لابنته وبسبب تجديفه على "زيوس" تحوَّلَ إلى نهر، المترجم.

برِّيَّةٍ صغيرة تُحتَضَر؛ وغناءَ القَبَّرات يملأ السَّماء. آه يا لِلرَّوعة! لم أسمع بحياتي غناءً أشدَّ اندفاعاً من هذا. آلافُ القُبَّرات، جموعٌ لا حصر لها.... تثبُ من كلِّ ناحية، ترتمي بعنفٍ نحوَ السَّماء بعزمِ قذَّافات، تلوحُ محتشدةً، ثمَّ تتبدَّدُ في الضَّوء فلا تُرى ثانيةً، كأنَّما أتلفَها الغناء أو التقمَتْها الشَّمس.... إحداهنَّ وقعتْ فجأةً عند أقدام حصاني، ثقيلة مثل حَجَرة، ولم تتحرَّك، مَيتةً، مقتولةً بنشوتها، إذ غنَّت بغبطةٍ مُفرطة. لقد التقطتها. ها هي ذي.

آنَا

تمدُّ يدَها نحوَه لتأخذ القُبَّرة.

آه، لا تزال دافئةً. لكم هي طريَّةٌ وناعمةٌ حَنْجَرَتُها! كانت تغنِّي منذ لحظاتٍ.... انظُري يا بيانكا ماريًّا.

بيانكا ماريًّا تدنو منها على استحياءٍ، غارقةً في فوضى شعرِها.

أنتِ ترتعشين.... إنَّها خَجِلةٌ أنَّكَ ترى شعرَها على هذه الحال، يا أِلسَّاندرو. كانت جالسةً بقربي، منذ قليلٍ، عندما انحلَّ شعرُها تحتَ يديَّ واجتاحَتني سيولُه على حين غرَّةٍ.... يا لَه من معجزة! لا بدَّ وأنَّه يغطِّيها إلى الكاحلَين. أنتَ تراها! أنتَ تراها! هل أنتِ في الشَّمس، يا بيانكا ماريًّا؟ أعطِها زهورَك، أِلسَّاندرو، أعطِها زهورَك.

بيانكا ماريًّا تقومُ بجمعِ شعرِها وفتلِه بمرحٍ وراء عنقِها.

ألِسّاندرو

مشدوهاً ومتردّداً، ولكنْ مبتسماً، يتقدّم نحو الفتاة.

إليكِ هذه الزُّهور، يا بيانكا ماريًّا.

بيانكا ماريًّا تمدُّ يديها، بعدما جمعت شعرَها كيفما اتَّفق وبانَ وجهُها الذي لاحتْ عليه آثار الدُّموع.

كنتِ تبكين؟

آنّا

كانت تقرأ لي في *الأنتيجونه*. فجأةً، أخذتها العاطفة....

ألِسّاندرو

بكيتِ لأجلِ *أنتيجونه*!

آنّا

كانت على دَرَجاتِ الإيوان، تنظرُ إلى دُوّامات الغبار تصّاعدُ من الآغورا؛ مُكدِّرةَ الخاطِر بأحوال أخيها....

ألِسّاندرو

كنتِ إذنْ تقرأينَ قصّةَ الحارس.... لا شيء يُضاهي جمالاً مشهدَ *أنتيجونه* تحتَ زوبعة الغبار المتّقدة، في السَّهب المضطرم، وهي تصرخُ وتلعنُ، فوقَ الرُّمّة العارية لأخيها؛ فيما هناكَ، على التَّلّة،

الحُرَّاس المُقرفصون في مواجهة الرِّيح، هرباً من رائحة الجسدِ المتفسِّخ، ينتظرون بعيونٍ مغلقة أن يمرَّ الإعصارُ المُعَمِّي؛ وهيَ، بلا خوفٍ داخلَ الحريق الوحشيِّ، تجمعُ بملء كفَّيها الغبارَ وتسكبُه على الجثَّة.... آه، هكذا أتخيَّلها على الدَّوام! أليست فاتنةً ورائعة حين يقتادها أوديب من يدِها وتمضي إلى الإعدام؟ ليتني كنتُ هنا وأنتِ تقرأين يا بيانكا ماريًّا. لم أسمعكِ قطُّ تقرأين.

آنّا

لماذا لا تقرأين بضع صفحاتٍ أُخَر؟

بيانكا ماريًّا

الكتابُ ليس معي.

آنّا

هل تركتِه على رفِّ النَّافذة؟

بيانكا ماريًّا

لقد تركتُه.... لا أعرف أين، يا آنّا.

ألِسّاندرو

ربَّما تقرأين لي في يومٍ آخر.

بيانكا ماريًّا

متى شئتَ، أقرأ لك.

ألِسَّاندرو

يوماً ما أودُّ لو أسمعكِ تقرأين *الإلكترا*[1] لسوفوكليس، في فيء بوّابة الأُسُود.

بيانكا ماريًّا

آه، إنَّها ابتهالٌ إلى الضَّوء!

ألِسَّاندرو

يوماً ما أودُّ لو أسمعكِ تقرأين إحدى قصائدي.

آنّا

أيَّ قصيدةٍ من قصائدِك؟

ألِسَّاندرو، مُتحيِّراً.

أيَّ قصيدة؟

لحظة صمت. يجيءُ عبرَ الإيوان المفتوح صوت صخبٍ مشوَّش. **بيانكا ماريًّا** تصعد الدَّرجات بسرعة وتنظرُ جهةَ الأكروبوليس.

---

(1) تُعدُّ مسرحيَّة إلكترا، كما يقول نبيل الحفَّار، "نموذجاً نادراً للمسرحية الدائرية، إذ يتطابق بناء مشاهد الجزء الأول مع بناء مشاهد الثاني، مع الحفاظ على تصاعد حالة التوتر منذ المشهد الأول حتى ما قبل الأخير الذي يشكل الذروة الثانية للأفعال؛ وعلى نقيض معالجتي إسخيلوس وأوربيديس للموضوع نفسه، فإن أورست وإلكترا هنا لا يعاقبان من قبل الآلهة على قتل الأم"، المترجم.

بيانكا ماريًّا، بحماسٍ.

إنَّهم الرِّجال في الآغورا. يصيحون فرحاً. لعلَّهم اكتشفوا قبراً ما؛ لعلَّهم وجدوا الأمير.... (تصيحُ)[1] ليوناردو! ليوناردو!

ألِسَّاندرو، صاعداً نحوها.

ترينَ ليوناردو؟

بيانكا ماريًّا

لا، لا أراه.... الغبارُ يحجبُ كلَّ شيءٍ؛ الرِّيح جدُّ عاتية. ينبغي أن يكون هناك، على ركبتيه، تحتَ الغبار.... أوه، ليوناردو!

ألِسَّاندرو

صوتُكِ لا يصلُ إليه. ليس في مقدوره سماعُك.

بيانكا ماريًّا

لقد توقَّفوا عن الصِّياح. أصغِ!

ينهمرُ شعرُها ثانيةً من وراء عنقِها، منحلًّا.

ألِسَّاندرو

لقد توقَّفوا عن الصِّياح. ما مِن جلبةٍ تُسمَع.

لحظة صمت. يمكثان هنيهةً بجانب بعضهما، صامتَين. الرِّيح تحملُ نحوَ **ألِسَّاندرو** شعرَ **بيانكا ماريًّا**.

---

(1) الكلمة بين قوسين غير موجودة في النَّصِّ الإيطاليِّ، المترجم.

آنّا

غريبٌ هذا الصَّمت.

الاثنان ينزلان الدَّرجات، مكدَّرَين. فجأةً، إذ تحسُّ بشعرِها يُشَدُّ، تطلق **بيانكا ماريًّا** صرخةً صغيرة. العمياء تثبُ واقفةً على قدميها، وهي ترتعش. القُبَّرة الميتة تقع من حضنِها.

أَلِسَّاندرو!

أَلِسَّاندرو، يتكلَّفُ ضحكةً.

لا شيء على الإطلاق يا آنّا. بضعُ شعراتٍ من رأسِ بيانكا ماريًّا علقتْ بفَصِّ خاتمي وانتُزعتْ.... هل آلمكِ هذا؟

بيانكا ماريًّا

أوه، قليلاً....

واضعةً الزُّهور على إحدى الدَّرجات، تحاول من جديدٍ تثبيت شعرِها.

أَلِسَّاندرو

عَفوَكِ. لم أنتبه إلى ذلك....

آنّا

ببساطةٍ، متظاهرةً بخلافِ ما تُبطن.

لهوَ في غايةِ النُّعومة شَعرُ بيانكا ماريًّا! هل شعرتَ بذلك، يا أَلِسَّاندرو؟ لكم أرغب في امتلاكه دوماً بين أصابعي، كما لو في آلةِ تسليكِ الحرير.

تدنو من **بيانكا ماريًّا** متلمِّسةً سبيلَها، ثمَّ تستندُ إلى عضُدها، في مشهدٍ لطيف.

ألِسَّاندرو، مستمرّاً في تكلُّف الضَّحك.

أوه، أنا لم أتجاسر على لمسِه. الرِّيحُ دفعته نحوي. إنَّه نهبٌ عن غيرِ عَمد: بضعة خيوطٍ حريريَّةٍ لوصلِ الصَّفحات المتناثرة ببعضِها....

يحاولُ تخليصَ الشَّعرات المتبقيَّات من فَصِّ الخاتَم.

لكن لا سبيلَ إلى فكِّها. يا لِلعُقْداتِ التي تُتقنُ صنعَها الصُّدفة!

بيانكا ماريًّا، مرتعدةً.

اسمعا!

يتناهى الصَّخبُ من جديد.

إنَّهم يصرخونَ ثانيةً.

آنّا

لعلَّه كشفٌ عظيم....

ألِسَّاندرو

هل لاحظتِ، يا بيانكا ماريًّا، كيفَ كان ليوناردو قلقاً ومُضطرباً، صبيحةَ اليوم؟ بدا كما لو أنَّه طالعٌ من حُمَّى ليليَّة.... قد يكونُ زارَه في الحلم "أميرُ البشر" فاستفاقَ ممتلئاً بحدسٍ عظيم. ألم تُغمِّكِ الجذوةُ في عينيه؟ أنا لم أستطع النَّظر إليه من دون أن أتوجَّع. لقد

فكَّرتُ طويلاً في أمره، عبرَ الرِّيف. رجوتُ لو أنَّه عاد بصُحبتي: لكانَ سمعَ غناء القُبَّرات، وقطفَ بضع زهراتٍ بتلك الأصابع التي لم تعرف سوى الحجارة والغبار منذ زمنٍ بعيد. آه، منذ زمنٍ بعيدٍ وهو منحنٍ على الأرض الرَّماديَّة الصَّلدة! وفي غمرة افتتانه بالقبور نسيَ فِتنةَ السَّماء. ينبغي أن أخلِّصه في النِّهاية من هذه اللعنة....

بيانكا ماريًّا

أنتَ وحدَك القادر على فعل هذا. أنتَ تعرفُ مقدار سلطتك عليه.

آنَّا، بصوتٍ خفيض.

إنَّه مريضٌ؛ مريضٌ جدًّا.

بيانكا ماريًّا تنظر إليها، مرتعدةً وذاهلة، تاركةً حزمةَ الزُّهور تسقط من يدها.

ألِسَّاندرو

حقًّا! في ساعاتٍ معيَّنة يكون له مظهرُ المُصاب بلعنةٍ. هذه المرَّة، الأرضُ التي ينبشُها خبيثةٌ وملعونة: كأنَّي بها ما تزال تفوحُ بنتْنِ الخطايا الوحشيَّة. اللعنة التي انصبَّت على ذينكما الأثريديَّين كانت من القسوة حيثُ لينبغي بحقٍّ أن يتبقَّى منها أثرٌ ما مُخيفٌ في الرِّمال التي وطآها. أنا أعي كيف يمكن لليوناردو، الذي يعيشُ حياةً شديدة الباطنيَّة، أن تشوِّشه لعنةٌ كهذه حدَّ الجنون. أخشى أنَّ الميِّتَين اللذَين يبحث عنهما، ولا ينجح في العثور عليهما، قد انبعثا في داخلِهِ بقوَّة، وهما يتنفَّسان في داخلِه

أنفاسَهما المروِّعة التي نفخَها إسخيلوس[1]، ضخمَين وداميَين كما تجلّيا في *الأورستيا*[2] مطعونَين دونما هدنةٍ بالحديد وبمِشعَل القَدَر. آه، كم من الليالي رأيته يدخلُ غرفتي ويجلس بجانب سريري، صُحبةَ الكتاب الذي

---

(1) Eschilo أو Aeschylus (525- 452 ق.م)، يُعتبر مع سوفوكليس وأوربيديس الآباء الثلاثة للمسرح اليوناني؛ كتب العديد من المسرحيات التي جسدت التاريخ اليوناني ويقدر عددها بنحو تسعين، ولم يصل من أعماله سوى سبع مسرحيات هي: "الفُرس" (472 ق.م)، و"سبعة ضدَّ طيبة" (467 ق.م)، "بروميثيوس مصفَّداً" (465 ق.م)، "الضَّارعات" (463 ق.م)، "أغاممنون"، "حاملات قربان الخمر" (458 ق.م) و"ربَّات الغضب" (458 ق.م) والترجمة الحقيقية لعنوان هذه المسرحية هي "الصَّافحات" أو "المحسنات" وهي تسمية كانت مستخدمة لدى أهل أثينا بوجه خاص للإشارة إلى ربات الغضب Erinyes وذلك إبتغاء درء شرهن. هناك مايشبه الإجماع منذ القديم على أن إسخيلوس هو أبو فن المأساة، فقد كان له فضل تثبيت أسس المأساة من الناحية الفنية، إذ كان المسرح اليوناني قبله يعتمد على ممثل واحد يقوم بالأدوار المختلفة ولاسيما دورَيْ الإله والبطل وذلك بأن يصبغ وجهه بالمساحيق ويحدث بعض التغييرات في ملابسه، وسرعان ما أدرك أسخيلوس فداحة هذا القصور الفني فأقدم على إضافة ممثل ثان: وأدخل تعديلاً على دور الجوقة، مما ساعد على إبراز الصراع الذي تقوم عليه فكرة المسرحية اليونانية. كذلك اهتمَّ بملاءمة الملابس والأزياء لطبيعة القصة. واعتنى بصقل الأقنعة وإتقان صنعها لتعبر تعبيراً متناسباً مع الإنفعالات التي يتلبَّسها البطل، وبوجهٍ عام اعتنى بالإخراج والمشاهد وحث الممثلين على إجادة أدوارهم وبذل الجهد لإشعار المتفرجين بأنهم يرون شيئاً حقيقياً وليس مجرد تمثيل، المترجم.

(2) ثلاثيَّة الأورستيا أو "ربَّات الغضب" هي بإجماع الآراء أجمل المسرحيات اليونانية على الإطلاق. وقد مثلت في عام 458 قبل الميلاد، وأكبر الظن أن تمثيلها حدث بعد عامين من تمثيل مسرحية "بروميثيوس مُصفَّداً" وقبل أن يموت مؤلفهما بعامين. وموضوع المسرحية هو نشأة العنف من العنف، والجزاء المحتوم الذي لا بدَّ أن يؤدي إليه الكبرياء والتطرف المصحوبان بالعتو والصلف، المترجم.

كان يؤرِّقُه! كم من الليالي كان يسهرُ فيها معي، مرتِّلاً بصوتٍ عال تلك الأبيات العظيمة التي كانت تُعييه كأنَّها صرخاتٌ لا حدَّ لها، هائلةٌ على النَّفَس البشريِّ! ظنِّي أنَّه، لاحتكاكه المتواصل بالأرض الملعونة، يشعرُ، كلَّ يومٍ، كلَّ يومٍ، بالحمَّى تنمو في أعماقه. ظنِّي أنَّ الحياة الخياليَّة التي تغذِّيه قد أخذت على عاتقها أمر محو الصُّور والمعالم الواقعيَّة من داخله. أحسب أنَّه عند كلِّ ضربةِ فأسٍ الآنَ يرتعدُ بكلِّ عظامه، مضطرباً لرؤيةِ وجهٍ أتريديٍّ يظهرُ حقيقةً، وهو لم يُمسَّ بعد، وما تزالُ مرئيَّةً عليه علاماتُ العنف السَّاخط، عنفِ تلك المذبحة الوحشيَّة....

بيانكا ماريًّا

اسمعا! اسمعا!

يتناهى إلى السَّمع صوت صخبٍ جديد، أبعد مدىً. **بيانكا ماريًّا** مضطربةً، ولَهفى، تصعد إلى الإيوان؛ تنظرُ جهةَ الآغورا، في الشَّمس الهائلة.

لقد صعدوا على السُّور.... ثمَّة اثنان، ثلاثة، أربعة رجال على السُّور.... يصرخون، يصرخون فرحاً، يصرخون نحوي، ويحرِّكون أذرعهم.... انظرا! انظرا!

آنّا تقبضُ على مِعصم **السَّاندرو** وتُبقيه لِصقَها، عند قاعدة الدَّرج، منتفضةً من القلق. **بيانكا ماريًّا** تتقدَّمُ نحوَ الشُّرفة، تُطلُّ برأسها من خلال الدَّرابزين، هاتفةً. في الفواصل الزَّمنيَّة، ما بين عباراتها المقتضبة، تبدو كأنَّها تلتقطُ إيماءاتٍ وبضع كلماتٍ من أخيها الذي يقترب بسرعة.

ليوناردو! أرى ليوناردو!... إنَّه هناك، إنَّه هناك.... إنَّني أراه.... الآنَ هو يخرجُ من بوَّابة الأُسُود؛ ينحدرُ إلى الأسفلِ مسرعاً؛ كلُّهُ مُبيضٌ بالغبار.... ثمَّة أمرٌ عظيم! ثمَّة أمرٌ عظيم!... أخي! آه! لقد وقع...، زلَّت قدمُه بِحَجَر.... يا إلهي! ها هو ينهض؛ يركضُ.... آه، أخي! ها هو ذا! ها هو ذا! آه، القبور... لقد وجدَ القبور.... كلَّ القبور.... حمداً لله! آه، يا للفرح، يا للفرح! ها هو أخي!... ها هو ذا! إنَّه هنا! لقد وصل!

تنزلُ إلى الحُجرة، تركض نحو الباب وتفتحه.

أخيراً! أخيراً!... ها هو يدخل، ها هو يصعد.... أخيراً، كَمُلَ الفرح، كَمُلَ الفرح!... أخي! أخي!

المشهد الخامس

يدخلُ **ليوناردو** من البـاب الأوَّل علـى اليمين، مبيـضَّاً بالغبـار، يتصبَّبُ عرقاً. عيناه تلمعان في وجهه الذي بالكاد يمكن التَّعرُّف عليـه. انبهارُ أنفاسِه يُعجزهُ عن الكـلام؛ وذراعـاه ترتعـدان بقـوَّة، معفَّـرتَين بالتُّراب، ومليئتَين بخدوش مدمَّاة. الحُجرةُ بأسرِها مغمورةٌ بالشَّمس.

ليوناردو

الذَّهب، الذَّهب.... الجُثث.... بحرٌ من الـذَّهب.... الجُثـث كلُّهـا مغطَّاةٌ بالذَّهب....

الاضطراب يخنقُ صوتَه. **بيانكا ماريًّـا وألِـسَّاندرو** يقفان إلى جانبه، متشوِّقَين، تتملَّكهما الإثارة ذاتُها. **آنَّا** واقفةٌ لوحدها: تستندُ إلى حافَّة الطَّاولـة، مائلـةً برأسها إلى الجهة التي يجيء منها صوت المتكلِّم.

بيانكا ماريًّا، بحنانٍ بالغ.

إهدأ، إهدأ، يا ليوناردو؛ خـذ أنفاسَـك؛ اسـترح لحظـةً.... هـل أنت عطِش؟ هل تريد أن تشرب؟

ليوناردو

أوه، أجل، أعطني لأشرب! إنِّي أموت عطشاً.

بيانكا ماريًّا تذهب نحو الطَّاولة. تملأ له كأساً من الماء وتناوله إيَّاه. هو، يشربه متلهِّفاً، في نفَسٍ واحد.

بيانكا ماريًا، مرتعشةً.

أخي المسكين!

ألِسَّاندرو

اجلُس؛ أرجوك! استرحْ قليلاً....

ليوناردو، لامساً كتف **ألِسَّاندرو**.

آه، لماذا لم تكن هناك؟ لماذا لم تكن هناك؟ كان ينبغي أن تكون هناك يا ألِسَّاندرو! إنَّها الرُّؤيا الأكثر روعةً والأكثر غرابةً التي ربَّما حظيتْ بها عيونٌ فانية؛ رؤيا باهرة؛ بهاءٌ مُذهل؛ ألقٌ رهيب، رُفعَ عنه الحجابُ فجأةً، كما لو في حلمٍ خارق.... لا أعرفُ، لا أعرفُ كيف أصف ما رأته عيناي. سلسلةٌ من القبور: خمس عشرة جثَّةً لم يمسسها أحدٌ من قبل، واحدةً لِصقَ الأخرى، على سريرٍ من الذَّهب، بوجوهٍ مغطَّاةٍ بأقنعةٍ من ذهب، بِجباهٍ مكلَّلةٍ بالذَّهب، بصدورٍ ملفوفةٍ بالذَّهب، بذهبٍ على كلِّ موضع، على جذوعهم، على أكتافهم، على أقدامهم، على كلِّ موضعٍ ثمَّةَ وَفرةٌ من أشياء ذهبيَّة، لا تحُصى مثلما لا تُحصى الأوراق المتساقطة من غابةٍ أسطوريَّة: إنَّه بهاءٌ لا يوصف، انبهارٌ عظيم، الكنزُ الأكثر سطوعاً الذي حشدهُ الموتُ في دياجير الأرض، منذ قرون، منذ آلاف الأعوام.... لا أعرفُ، لا أعرفُ كيف أصف ما رأته عيناي. آهٍ أنت، أنت كان ينبغي أن تكون هناك، يا ألِسَّاندرو! أنتَ وحدَكَ كنتَ ستعرف كيف تصفُ ذلك....

يتوقَّف لحظةً كما لو أنَّه مُثقَلٌ بضيق التَّنفُّس.

الجميع معلَّقٌ بشفتيه المحمومتين.

في لحظةٍ واحدةٍ اجتازت الرُّوحُ القرونَ والألفيَّات، تنفَّستْ هواءَ الأسطورةِ المهول، ونبضتْ بهَولِ المذبحةِ البائدة. الخمسَ عشرةَ جثَّةً كانت هناك، مكتملةَ الأعضاء، كما لو أنَّها أودعتِ القبورَ فوراً بعدَ القتل، ملوَّحةً قليلاً بنيران المحارق التي سرعان ما انطفأت: أغاممنون[1]، هرمجدون[2]، كاسَّاندرا[3] والحرس الملكيُّ: جميعهم مدفونون في ثيابهم، مع أسلحتهم، بتيجانِهم، بجانب زَهريَّاتِهم، ومجوهراتهم، في بحر ثرواتِهم.... هل تذكر، هل تذكر يا أِلسَّاندرو تلك الفقرة لهوميروس؟ "وكانوا مُضَّجعين، وسط الزَّهريَّات والموائد المُعَدَّة؛ والحُجرة برمَّتها كانت مُشَبَّعةً بالدِّماء. وكنت أسمع الصَّوتَ المُكرب لابنةِ كاسَّاندرا، فيما الغدَّارةُ كليتمنسترا تذبحُها إلى جانبي...." في لحظةٍ واحدة عاشت روحي تلك الحياة البائدة والوحشيَّة. لقد كانوا هناك، أولئك المقتولون:

---

(1) في الأسطورة الإغريقية هو شقيق مينلاوس ملك إسبارطة، وهو من قاد الحملة على طروادة من أجل استعادة هيلين زوجة الملك مينلاوس والتي هربت إلى طروادة مع بارس. تروي إلياذة هوميروس صراعات أغاممنون مع آخيل بطل الإغريق على الغنائم، كما تروي الأوديسة مقتل أغاممنون على يد زوجته كليتمنسترا وعشيقها إيجيستوس بعد عودته منتصراً من حرب طروادة. جديرٌ بالذِّكر أنَّ عالم الآثار الألماني هاينريش شليمان عثر على قناع جنائزي من الذَّهب في اليونان، في إحدى المقابر الملكية، يُعتقد أنَّه يعود للملك الأسطوري أغاممنون، المترجم.

(2) هو سائس العربة الحربيَّة لأغاممنون، المترجم.

(3) هي ابنة بريام ملك طروادة وهيكوبا وكانت محبوبة لأبوللو الذي وعدها بنعمة التَّبصُّر إذا ما استجابت لرغباته فوافقت على عرضه، لكن ما أن نالت الموهبة حتَّى سخرت من أبوللو ورفضت تحقيق طلبه فانتقم منها بأن جعل كلَّ نبوءاتها تُكذَّب. لم يصدِّق أغاممنون نبوءتها أنه سيموت في بلاده وهذا ما حصل على يد زوجته وعشيقها. لم يُشر هوميروس إلى موهبتها في كتاباته، المترجم.

ملك الملوك، الأميرة المُستعبَدة، السَّائس والحاشية: هناك كانوا، تحتَ عينيَّ للحظةٍ، جامدين. كمثل بخارٍ يتضوَّع، كمثل زبدٍ يتبدَّد، كمثل غبارٍ ينتشر، كمثل شيءٍ سريع الزَّوال بما يفوق الوصف، كانوا جميعاً متلاشين في صمتهم. بدوا لي كما لو أنَّهم مبتلَعون بالصَّمت القاتل نفسه الذي كان يحوِّط سكونَهم المُشع. لا أعرف كيف أصف ما حدث. رُكامٌ من النَّفائس محفوظٌ هناك، كنزٌ لا مثيل له، هو الشَّاهد على حضارةٍ عظيمةٍ مجهولة.... لسوف ترى، لسوف ترى.

آنّا، بخضوع.

يا لِلحلم!

ألِسَّاندرو

يا لِلمجد! يا لِلمجد!

ليوناردو

لسوف ترى. أقنعة الذَّهب.... آه، لماذا لم تكن هناك، إلى جانبي؟... الأقنعة حمت الوجوه من الاتِّصال بالهواء، لذلك بقيت هذه الوجوه تامَّة التَّكوين. إحدى الجثث فاقت بقامتها وفخامتها كلَّ الأخريات، عليها طوقٌ تاجيٌّ عريضٌ من الذَّهب، مع الزَّرَد، وحمَّالة السَّيف، ودِرعَي السَّاق الذَّهبيَّين، محوَّطةٌ كذلك بالسُّيوف، والرِّماح، والخناجر، والطَّاسات، مرشوشةٌ بأقراص ذهبيَّةٍ لا تُحصى أهرِقتْ بملء الأيدي كما لو كانت تُويجاتُ زهور، لهيَ أكثر مهابةً من نصف إله. انحنيتُ فوق الميت، فيما صورتُه تدغُشُ في الضَّوء، ورفعت القناع الثَّقيل.... آه، هل كنت أنظرُ حقّاً إلى وجه أغاممنون؟

هل كان هذا حقّاً هو ملك الملوك؟ فمُه كان مفتوحاً، جَفناه كانا مفتوحَين.... هل تذكر؟ هل تذكر هوميروس؟ "فيما كنتُ أضطجعُ ميتاً، رفعتُ يديَّ نحوَ سيفي؛ لكنَّ الأنثى ذات العينين الذُّئبيَّتين ابتعدتْ؛ لم ترضَ أن تغلقَ جفنيَّ وفمي لحظةَ نزولي مُستقَرَّ العالم السُّفليِّ." هل تذكر؟ فمُ الجثمان كان مفتوحاً، الجَفنان كانا مفتوحَين.... كانت له جبهةٌ عظيمةٌ، مزيَّنةٌ بورقةٍ مستديرةٍ من الذَّهب؛ الأنف طويلٌ ومستقيم؛ الذَّقن بيضويٌّ؛ وما إن رفعتُ الزَّرَد حتَّى رأيتُ العلامةَ المتوارثة لسلالة البلوبيديِّين "كُتْفيَّةَ العاج".... كلُّ ذلك في غمرة الضَّوء. لطمةٌ من الغبار وركامٌ من الذَّهب....

أِلسَّاندرو، مبهوتاً وذاهلاً.

تتحدَّثُ كالخارج من نوبةِ هُلاس، أو كمن هو فريسةٌ للهذيان. هذا الذي تقوله لا يُصدَّق.... إن كنتَ رأيت حقّاً ما تقول، فأنت لستَ بشراً بعد اليوم.

ليوناردو

لقد رأيت! لقد رأيت!... إنَّها كاسَّاندرا! تماماً كما عشقناها، ابنةُ بريام، "زهرةُ الأسلاب!" هل تذكر؟ هي هناكَ كما عشقتَها أنتَ، عشقَ أبوللو نفسَه! كما أحببتَها خرساءَ صمَّاءَ في عربتها، لوجهها الذي "للبوَةٍ ضاريةٍ اصطيدتْ للتَّو"، للنَّار النَّبويَّة المُحتضَنة تحت لسانها العَرَّاف. أكثر من ليلةٍ أيقظني صراخُها النَّبويُّ من نومي.... وقد رأيتُها هناك، منذ وهلةٍ، مستلقيةً على سريرٍ من أوراق الذَّهب، وآلاف الفَراشات الذَّهبيَّة على ثوبها، بجبينها المطوَّق بإكليل، بجيدِها المزيَّن بالقلائد، وأصابعِها المكتظَّة بالخواتم؛ وكان قِسطاسٌ ذهبيٌّ موضوعاً على صدرِها،

القِسطاسُ الرَّمزيُّ الذي توزن فيه أقدارُ البشر، وثمَّةَ لا متناهٍ من صلبان ذهبيَّة، على شكل أربع وريقاتٍ من الغار، يغمرُها حِفافَيها ووراءَها وأمامَها؛ بَينا ابناها تالِدامو وبيلوبِّي، المحفوفان بذاتِ المعدن، نائمان عند كتفيها كمثل ملاكَين طاهرَين.... هكذا رأيتُها. وقد ناديتُكَ بأعلى صوتي، فيما كانت تُوارى. وأنتَ لم تكن هناك! لسوفَ ترى غطاءَها الذي من ذهب، لسوف تمسس فضاءَها الخاوي....

ألِسَّاندرو، فاقد الصَّبر ومُستثاراً.

ينبغي أن أرى، ينبغي أن أهرع....

ليوناردو

يُمسكه من يده، تحدوه رغبةٌ لا تقاوم في الحديث أكثر، وفي الإفضاء إلى الجميع بفَيضِ مشاعرِه المحموم.

زَهريَّاتٌ رائعة، بأربعة مقابض، مزخرفةٌ بحمائم صغيرة، شبيهةٌ بطاسات نيستور[1] في الإلياذة؛ رؤوس ثيرانٍ ضخمة، جميعُها من فضَّةٍ خالصة، عليها قرونٌ من ذهب؛ آلاف الرُّقاقات المعمولة بشكل زهور، وأوراق، وحشراتٍ، وأصداف، وحبَّاراتٍ، وفرغوناتٍ، ونجوم؛ حيواناتٌ خرافيَّةٌ من الذَّهب، والعاج، والبلَّور المصفَّى؛ إسفينجاتٌ[2]،

---

(1) اشتهر بكونه المقاتل الأقدم والأكثر حكمةً تحت أسوار طروادة، واسمه مذكورٌ في إحدى الكتابات الشِّعريَّة المنقوشة على طاسةٍ سُمِّيت بالضَّبط بطاسة نيستور، وتُعدُّ هذه الطَّاسة الوثيقةَ الأقدم للغة الإغريقيَّة المعاصرة لقصائد هوميروس، المترجم.

(2) هي كائنات أبو الهول الخرافيَّة، المترجم.

غريفونات[1]، كِميرات[2]؛ تماثيلُ آلهةٍ مثقلةٌ أذرُعُها ورؤوسُها بالحمائم، مُصغَّراتُ معابد بأبراجٍ متوَّجةٍ بحمائم مفتوحة الأجنحة؛ تصاويرُ صيدٍ أسودٍ ونمورٍ، مرقوشةٌ فوقَ نِصال السُّيوف والرِّماح؛ أمشاطٌ من العاج، أسْورةٌ، دبابيسُ أوراق، أختامٌ، صولجاناتٌ، عِصيٌّ هِرمزيَّة[3]...

فيما هو يستدعي هذه الرَّوائع، تتهاوى آنّا على أحد الكراسي وتغطّي وجهها براحتيها، منحنيةً، ومتّكئةً بمِرفقيها على الرُّكبتين.

إلِسّاندرو، متحرِّراً.

دعني أذهب! دعني أذهب!

ليوناردو، ناهضاً، على نحوٍ جنونيٍّ.

أنا آتٍ معك. فلنذهب!

بيانكا ماريّا

مُعانقةً أخيها ومتضرِّعةً إليه، فيما شعرُها ينحلُّ وينثالُ من جديد.

---

(1) الغريفون حيوانٌ خرافيٌّ مجنَّح له رأس نسر وجسد أسد مع عناصر جسديَّة لحيواناتٍ أخرى، المترجم.

(2) الكِمير كائن خرافيٌّ أسطوريٌّ له رأس وجسد أسد، يوجد على ظهره رأس ماعز، وله ذيل أفعوان، المترجم.

(3) أو عصا القادوسيوس، هي صولجان هرمز وتلتف عليه حيَّتان وفي أعلاه جناحان، المترجم.

لا، لا يا ليوناردو. أرجوك! امكثْ هنا قليلاً، فلتسترحْ قليلاً، التقطْ على الأقلِّ أنفاسك! أنتَ في غاية الإجهاد؛ إنَّك مُستنفَدَ القوى....

ألِسّاندرو

إنَّني ماضٍ! إنَّني ماضٍ!

يخرجُ من الباب المُفضي إلى الدَّرج.

بيانكا ماريًّا

لا تزال مطوِّقَةً أخيها بذراعيها، بحنانٍ بالغ.

أوه، كم أنتَ خائسٌ، يا أخي المسكين! إنَّك تتصبَّبُ عرقاً.... العرقُ عليكَ ممزوجٌ بالغبار.... وجهُكَ يكاد يكون أسود.... وهاتان العينان البائستان، هاتان العينان البائستان! لَكَم هما متأجِّجتان! جفناكَ مُحمرَّان ومُنتفخان كما لو أنَّك بكيتَ حَولاً بأكملِه.... ألا تؤلمانك؟ أوه، كم من الألم تُلهبُ فيكَ هاتِه العيون البائسة؟ سأعطيكَ ماءً لغسلِها، لتبريدِها. الآنَ سوف تستريح، أليس كذلك؟ الآنَ، وقد تمَّت رغيبتُك، سوف تستريح.... أنتَ، ها إنَّكَ غارقٌ في المجد؛ لقد كنتَ تشعُّ، آنفاً، حين دخلتَ، كنتَ تشعُّ بكلِّ ذهبِكَ المحظيِّ ذاكَ....

تكادُ تحجبه بشَعرها بَينا هيَ مستسلمةٌ على صدره. برقَّةٍ لا متناهية، تجفِّفُ بشَعرها جبينَه، وعينيه، وخدَّيه، وعنقه، غامرةً إيَّاه بعذوبتها. ليوناردو يبدو عليه النُّفور والحَزم، مع تعبيرٍ فائقٍ عن الألم والرُّعب على وجهه المُضنى، والمُغطَّى بشحوبٍ مَماتيّ.

دعني أجفِّفك، دعني أجفِّفك! لا أعرف كيف أصف لكَ اغتمامي بمرآك.... لا أعرف أيَّ شيءٍ أعطيك ليخفِّفَ إعياءَك، ليهدِّئ دَمَك، وليُحيي لونَك؛ لا أعرف أيَّ بَلسم، لا أعرف أيَّ شراب.... آه، كم يوماً، كم يوماً وأنتَ ماكثٌ هناك، قُدَّامَ التُّراب، داخلَ الحُفَر، تبتلعُ الغبارَ اللعين، وتُبلي يديكَ على الصُّخور، دون هُدنةٍ، دون هُدنة! يا لَليدَين البائستين! إنَّهما في كلِّ موضعٍ مُخدَّشتان، ومُلطَّختان بالدِّماء، بأظفارٍ مُحطَّمة، لكأنَّ لا لحمَ فوقهما، جافَّتان مثلَ الحطب.... ألا تؤلمانك؟ يداكَ البائستان! سوف أحضر لك دَهْنَةً، عذبةً للغاية، مُعطَّرةً بالبنفسج، - لَسوف تُبْرِئهما في لحظات، وتردُّهما ناعمتَين وبيضاوَين مثلما كانتا ذاتَ مرَّة.... آه، أذكُرُ: كان لديك يدان في غاية الجمال والرِّقَّة.... آهِ كيفَ ترتعش! كيفَ ترتعش!

آنَّا، ترفعُ رأسها بغتة.

لا بدَّ وأنَّك تشعر بالإعياء حدَّ الموت. لقد مددتَ حياتَكَ مثلَ قوسٍ، حتَّى تحطَّم بين يديك! ليس فيكَ وريدٌ إلَّا ويرتجف.... كلُّ أعصابك ترتعش في جسدك كما ترتعشُ الأوتارُ إذ تُشَدُّ.... أنتَ تُكابد، أنتَ تُكابد....

بيانكا ماريًّا

تبدو مصدومةً بأثَر الكلمات المنطوقة بلسان **آنَّا**.
تصمتُ، وعلى وجهها سيماء الحَصر واللوعة. ثمَّ تأخذ رأسَ أخيها بين راحتيها، وتحدِّقُ داخلَ عينيه.

أنتَ لستَ مُستاءً منِّي؛ صحيح؟ أنا لم أقترف شيئاً؛ صحيح؟، أنا لم أقترف ما قد يسوق إليكَ الألم. قُل لي، قُل لي يا ليوناردو! أجبني!

ليوناردو، بصوتٍ خامدٍ، محاولاً أن يبتسم.

أوه، لا شيء!

بيانكا ماريًا

لم أحْبُبكَ يوماً كما أحبُّكَ الآن، يا أخي. شفقتي عليك لم تكن قطُّ بهذا العُمق. أنتَ خاطِري الذي لا ينقطع؛ أنتَ لي كلَّ شيءٍ. احملني معكَ أنَّى شئت، إلى الصَّحراء الأكثر قَحطاً، إلى الخَراب الأكثر إيحاشاً؛ فإذا أنتَ ابتسمت، إذا ما انشرحتْ سرائرُك، فتلك هي غبطتي القصوى. أريد أنا الأخرى أن أكون معكَ في قلبِ الغبار، أريد أنا الأخرى أن أبلي يديَّ على الصُّخور، أريدُ أنا الأخرى أن أقطفَ عظامَ الموتى؛ لكن ينبغي أن تبتسم، ينبغي أن يصفو جبينُك.... هل تذكُر؟ هل تذكُر؟ كنتَ في سيراكوزا تغنِّي وأنتَ في عزِّ العمل، وكان جمالُ التَّماثيل التي كنتَ تبحث عنها يشعُّ من روحِك. كنتُ أنا أنتخبُ البرتقالات الأعذب مذاقاً لأحملها إليك؛ وما كنتَ لترتضيها إلَّا مقشورةً بأناملي. هل تذكُر؟ وحينَ تتعب، كنتَ تُرخي رأسكَ على ركبتيَّ، في ظلِّ الزَّيتون؛ وكنتُ أحرسُ نُعاسَكَ الوديع، وأنتَ تهجسُ بتماثيلِك. آه، منذ متى، منذ متى لم أشاهدكَ تغفو! لا شكَّ وأنَّ عندك حاجةً لا متناهية إلى النَّوم، إلى النَّوم.... لم يعد في مقدوركَ رفعُ جَفنَيك.... تعال، تعال، إلى حُجرتِك. أريدُ البقاءَ بقربِك. دعني أكن لكَ أمَّاً! ينبغي أن تنام، أن تنامَ نَومةً مديدةً وعميقة؛ ينبغي أن تدع

كيانَك يصفو مثل ماءٍ رائق.... وعندما تصحو ستجدُ كلَّ الذَّهب الذي وجدتَه، صحبةَ الذَّهبِ الذي في أعماقِك. وسوف أكون ثانيةً وِسادَتَك. تعال! تعال!

يحاولُ الهروبَ من هذه العذوبة المُنقضَّة عليه، كما لو أنَّه فريسةٌ تحتَ نهشٍ لا يُحتمَل.

لا أريد أن أراك ترتعدُ هكذا! لا أريد أن أراك ترتعد هكذا بعد الآن! تعال!

ليوناردو

ينبغي أن أصعدَ ثانيةً إلى هناك.

بيانكا ماريًّا

من غير المُمكن. إنَّه منتصف النَّهار. ألا ترى؟ الشَّمس في كلِّ مكان: شمسٌ حارقة.... ألم تترك حرَّاسَك هناك؟

ليوناردو

ينبغي أن أعود، ينبغي أن أعود....

بيانكا ماريًا

من غير المُمكن. لا يمكنك أن تصعد إلى هناك هكذا كما أنت.... سوف تسقطُ في الطَّريق.... أصغِ إلى أختِك! تبدو كمن يدخل في غيبوبة.... دعني أصحبُك!

تحثُّه على مرافقتها، مطوِّقةً كتفيه بإحدى ذراعيها، وحاجبةً إيَّاه بشَعرِها، في حنانٍ بالغ. هوَ شاحبٌ ويائس. أنَّا تنهضُ بصمتٍ وتتلمَّس سبيلها نحوهما مُصغيةً، فيما هما يخرجان من الباب الثَّاني على اليمين. الحُجرةُ مغمورةٌ بالشَّمس.

المشهد السّادس

آنّا، وقد بقيت وحيدةً، تخطو بضع خطواتٍ مُتردِّدةٍ، وهي مُثقلَـةٌ بكربٍ مُبهم.

آنّا، بصوتٍ أصمّ، شِبهِ باطنيٍّ.

لا أحدَ كلَّمَني. إنَّني في حياةٍ أخرى.... بعيداً عن كلِّ ذلك الذَّهب المأتميِّ.... عن تلك الرُّوح المسكينة التي ترتعش.... وعـن كـلِّ تلـك الحياة العذبة التي تتوهَّجُ في ذلك المخلوق الفاتن....

قدماها تلتقيان بحزمةِ الزُّهـور الـتي وقعـت مـن يدَي **بيانكا ماريًّا**.

آه، الأزهار البريَّة التي جمعها لأجلِها!

تنحني وترفعُ الحزمةَ كلَّها، تغمسُ وجهَهـا فيهـا وتمكث هكذا صامتةً للحظات.

أرغب في البكاء.

تتقدَّم بضع خطواتٍ أُخَر.

أيَّتها المربِّية! أيَّتها المربِّية!

المربِّية

هارعةً من الباب الثَّاني على اليسار.

ها أنذه، إنَّني هنا.

تُمسك إحدى يديّ العمياء وتقبِّلها.

آنَّا

السَّاعة؟

المربِّية

منتصفُ النَّهار.

آنَّا

امسكي: خُذي هذه الزُّهور؛ ضعيها في زَهريَّةِ ماء.

المربِّية

لقد ذَوَت كلُّها؛ مُحالٌ أن تعيشَ أكثر.

آنّا، تاركةً الباقةَ تسقُط.

فلنذهبْ....

ما إن تمشي بضع خطوات، تقودُها المربِّية، حتّى تتوقّف فجأةً وتلتفت إلى الوراء، متنبِّهةً لأمرٍ ما.

آه! انظُري، أيَّتها المربِّية، هناك: ابحثي على البلاط....

المربِّية، منحنيةً تبحث.

ماذا أضعتِ؟

آنّا

ابحثي هناك.... ثمَّةَ قُبَّرةٌ مَيتة.

الفصل الثّاني

حُجرةٌ في شقّة ليوناردو. على امتداد الجدران المطليَّة بلونٍ أحمر قاتم تبرزُ رفوفٌ كبيرةٌ متعدِّدة الطَّبقات تضمُّ اللُقياتِ التي اكتُشفتْ في قبور الآغورا. الطَّاسات، الدُّروع، الأقنعة، التِّيجان، مقابض السُّيوف، والأحزمة الذَّهبيَّة تلمعُ كلُّها في الدَّغَش. فوق طاولتين مائلتين على شكلِ تابوت رُتِّبت الكنوز التي كانت على جُثمانَي أغاممنون وكاسَّاندرا، بأسلوبٍ يرسمُ معه اللباسُ والحُليُّ صورتَي الجسدين الغائبَين. ثمَّة بضعةُ صناديق ممتلئة بالذَّهب، وبضع زَهريَّاتٍ نُحاسيَّة ممتلئة بالرَّماد، عند أقدام الطَّاولتين. في الحائط الأيمن يوجدُ بابٌ مُوصَد؛ وفي أقصى الحُجرة ثمَّة شُرفةٌ مفتوحة تطلُّ على سهل آرغو والجبال البعيدة. تقتربُ ساعةُ المغيب.

المشهد الأوّل

بيانكا ماريًّا، واقفةً، ترتّبُ اللُقيات الرّائعة. تنحني على الصّناديق لتأخذ منها القلائد، والأسورة، والأمشاط، والبكرات، والتّماثيل من أجل ترتيبها على إحدى الطّاولتين، حولَ شبحِ المتنبِّئة الذّهبيِّ. بضعُ جدلاتٍ من خيوط الذّهب تتدلّى من بين أصابعها: جدلات صغيرة كانت تُستخدَم فيما مضى لتثبيت خُصلات الشّعر الطّويلة حولَ الجبين. تُجرّبُ وضعها على شَعرها بفضول. يُسمع، من وراء الباب، صوتُ **ألِسّاندرو**.

ألِسّاندرو

ليوناردو، أنتَ هناك؟

بيانكا ماريًّا، ترتعدُ مُحتارةً.

أخي خرجَ مِن بضعِ دقائق.... لا أعلم أين تُراه ذهب....

تمشي صوبَ الباب وتفتحُه. يظهر **ألِسّاندرو** على العتبة.

ألِسّاندرو، بشيءٍ من الاستحياء.

آه، أنتِ وحدكِ.... وحدكِ وسط الذّهب.... كنتُ أبحثُ عن ليوناردو.

بيانكا ماريًّا

لا أعلم أين ذهب.... ربَّما نزلَ إلى نبعِ بيرسيا....

كلاهما يتجنَّب النَّظر إلى الآخَر.

ألِسَّاندرو، يصنعُ خطوةً ليدخل.

بقيتِ هنا لتحرُسي اللُقيات يا بيانكا ماريًّا.... ماذا كنتِ تفعلين؟

بيانكا ماريًّا

كنت أعيد تنسيق المَصَاغ حول كاسَّاندرا. أتَرى؟ كلُّ ذلك الصُّندوق كان مليئاً بحُليها. لقد وعدتُ أخي أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون مرتَّباً عندما يعودُ، قبل المساء....

ألِسَّاندرو

أتريدين أن أساعدَك؟ الوقت قد تأخَّر.

بيانكا ماريًّا

الوقتُ قد تأخَّر....

ألِسَّاندرو، متقدِّماً نحو الجثمان المُفتَرَض.

يا لِلعجب! كأنَّما من هذا الطَّقم المذهَّب تطلعُ هيئةٌ غامضة.... بِوُسع الشَّفق، أو مصباحٍ ليليٍّ، أن يخدعَ العيون، مُعيداً تكوينَ الجسدِ بتمامِه. يقيناً، ليوناردو خبيرٌ بهذا الإيهام. لقد تراءى له أكثر من مرَّةٍ وجهُ بْرِيامِيدا[1].

---

(1) الإشارة هنا إلى كاسَّاندرا نفسِها، كِنايةً باسم أبيها بريام، المترجم.

بيانكا ماريًّا، متأوِّهةً.

آه، يبدو أنَّ عينَيه ما عادتا تريان سوى الأشباح!

ألِسَّاندرو، بعذوبة.

لستُ أقلَّ حزناً عليه منكِ يا بيانكا ماريًّا. كنتُ أتعقَّبُه، كمن يتفحَّصُ شيئاً شفَّافاً بتعريضِه للضَّوء.... منذ أيَّامٍ وأنا أراه، حين يكون في صُحبتي، كأنَّما تطاردهُ رغبةٌ قلِقةٌ في أن يكشفَ لي سرًّا. حينذاك، كنتُ أتركُ الصَّمت يُطبقُ علينا؛ وأنتظرُ بقلقٍ ليس بأقلَّ من قلقِه. يلوحُ لي أنَّ شفتَيه تنتفخان، كأنَّهما على وشكِ أن تنفتِحا. غيرَ أنَّه يَعدِلُ عن هذا؛ يظلُّ موصَداً. وأنا لا أجسرُ على استجوابِه، خشيةَ أن أقتلعَ منه غَصباً كلمةً لا تستطيعُ روحُه، بَعدُ، قولَها لي. بَينا نحنُ نتعذَّبُ معاً، في السِّرِّ.

لحظةُ صمت.

بماذا تفكِّرين يا بيانكا ماريًّا؟

بيانكا ماريًّا، مُقصيةً خاطِرَها عنه.

تودُّ، إذن، مساعدَتي؟ قليلاً ويعودُ أخي.

تنحني على الصُّندوق. في تلك اللحظة، ينظرُ **ألِسَّاندرو** إليها.

ألِسَّاندرو

ما هذا بين خُصلاتِ شَعرِك؟

يدنو منها.

بيانكا ماريًّا، مترددّةً.

آه، الجَدلات الذَّهبيَّة.... كنتُ وضعتُها على سبيل التَّجرُبـة. أردتُ عَرضَها هكذا على ليوناردو، ذلك أنَّ الشَّكَّ ما يـزال ينتابُـه في مـسألةِ استعمالها القديم.

تهمُّ أن تنزعَ الجَدلات من شَعرِها.

ألِسَّاندرو

يحاولُ أن يُمسكَها عـن فِعـل ذلـك بحركـةٍ غـير واثقة، ولكن من دون أن يلمسَها.

لا، لا. لماذا تُريدين نزعها؟ دعيها حيث هي!

بيانكا ماريًّا، تحاولُ أن تبتسم.

يجبُ أن أردَّها للأميرةِ الميتة، التي أحببتَها كثيراً....

ألِسَّاندرو

لا، لا. دَعيها قليلاً بعدُ في شَعرِك!

مُحاولاً منعَها من رفـعِ الجَـدلات، يمـسُّ يـدَها مسَّاً خفيفاً. يتـوتَّرُ الاثنـان. يترامقـان بـشيءٍ مـن العُنف المبطَّن. لحظةُ صمت.

بيانكا ماريًّا، تُخفضُ جَفنَيها ببُطءٍ.

أنتَ لا تُساعدُني....

لحظةُ صمتٍ أخرى. ينحني الاثنان على صندوقِ الذَّهب.

إلسَّاندرو

شاهدي النَّقشَ الغائرَ في هذا الخاتَم: امرأةٌ جالسةٌ تُمسكُ ثلاثَ زهراتِ خشخاش، وثلاثُ هيئاتٍ مُبهَمةٍ تقفُ أمامَها، وفوق رأسِها فأسٌ ذو حدَّين معَ القرصِ الشَّمسيِّ المُشعِّ. شاهدي هذا الآخَر: امرأةٌ فتيَّةٌ جالسةٌ تمدُّ ذراعَها ملتفتةً برأسها إلى الوراء، وأمامَها رجلٌ يمدُّ هو الآخَر ذراعَه. انظُري: للمرأةِ شَعرٌ وافرٌ غزير.

بيانكا ماريًّا

إنَّها تستديرُ برأسها إلى الوراء....

لحظةُ صمت. **بيانكا ماريًّا** تنهمك في ترتيب الحليِّ حولَ الشَّبح. **إلسَّاندرو** يتَّجه إلى الشُّرفة، ويقفُ ليتأمَّل البلدَ بضعَ لحظات. كلاهما يُصارعان الكَربَ الذي يغزوهما.

إلسَّاندرو

له حقًّا المَظهرُ الحُمِّيُّ لمن يُحتَضَرُ عطشاً، هذا البلد المُجدِب. كلُّ البلاد تتلطَّفُ وتتنفَّس، عندما يدنو الليل. أمَّا هذا فيقصُّ موتَه العَطَشيَّ على الليل. حتَّى حدود الشَّفق الأخيرة، تُرى أسرَّةُ الأنهار النَّشِفة وهي تَبْيَضُّ في كَدَر. وتلك الجبال هناكَ في البعيد، أليسَ لها هيئةُ قطيعٍ من حمير الوَحش، بتلك الظُّهور الوعرة المتناضِدة؟ لتشعرين هناكَ، وراءَ الجسر، أنَّ سبخةَ ليرنا[1] برمَّتها تتبخَّر. انظُري

---

(1) مدينةٌ يونانيَّة قديمة في إقليم آرغوليذا، كان يعيشُ في مستنقعها، حسبَ الأسطورة الإغريقيَّة، مخلوقاتٌ خرافيَّة تسمَّى بالهيدرات وهي عبارة عن أفاعٍ برؤوسٍ متعدِّدة تنمو من جديدٍ إذا ما قُطعتْ، وتقتل الرِّجال بنفثةٍ واحدة، المترجم.

هناكَ إلى الأركانيو كيف يتأجَّج! في كلِّ الأمسياتِ تقريباً تكونُ قمَّته حمراء، على شَرَفِ النِّيران التي أوقِدَتْ في مراقبِ كليتِمْنسترا تعلنُ نبوءَتها بسقوطِ طروادة. من جبلِ إيْدا إلى جبلِ أركانيو، يا لَه نسقاً مديداً من الرِّسالاتِ المتوقِّدة! كان مُشرقاً بالأمس ذلك التَّعدادُ الرَّائع من المحارق الجبليَّة التي أشعلتها الرَّبَّةُ فيكتوريا.... والآن، ها هو يسيلُ من بين أصابعِك رمادُ تلك النَّار الموقَدة إيذاناً بعودتِها! أنتِ التي تحملين في شَعرِكِ مَصاغ الأَمَةِ المَلَكيَّة الذي اختارتهُ من غنائم الحرب!

يتقدَّمُ ثانيةً نحو **بيانكا ماريًّا**، ناظراً إليها.

وكلُّ هذا بسيطٌ، حيث إنَّكِ تفعلينه. هُوَّةُ الزَّمن تنردمُ، بينكِ أنتِ الحيَّة وبين رُمَّتي المَلكِ والعَرَّافة اللتَين تحرُسين. كلُّ هذا الذَّهب كأنَّه مخصوصٌ بكِ من غابرِ الأزمان، ذلك أنَّكِ أنتِ الجمال وأنتِ الشَّعر؛ وكلُّ شيءٍ إنَّما يدخلُ في دائرةِ نَفَسِك، كلُّ شيءٍ يسقطُ طبعاً تحتَ مُلكِك....

بيانكا ماريًّا

شاحبةً ومرتعشة، تتَّكئ على طاولة الذَّهبيَّات.

لا تحدِّثني بهذه الكلمات!

ألِسّاندرو

لماذا لا تريدين أن أقولَ لك الحقيقةَ التي فتّحتِها في روحي؟ ألا تظنّين، يا بيانكا ماريًّا، أنّه لا بدَّ للحقائق المخفيَّة أن تُعرَضَ عندما تطلبُ هي ذلك، خاصّةً إذا كان المرء عاقد العزم على أن يحيا بلا ضعفٍ ولا نُكران؟ كم مرَّةً أغرقنا بالصَّمت شعوراً فُجائيّاً كان يولدُ في أعماقنا ويرتقي صاعداً إلى شفاهِنا! لا أستطيع أن أتذكَّر دون أن يعتريني الغمُّ والنَّدم. لكأنّي أراها تتموَّج تحت مياهٍ خرساء، تلك الأسرار الباردة الباقية بلا شكلٍ ولا صيغة. لَكانت استطاعت أن تُنشئ فينا غِبطاتٍ جديدة، وآلاماً جديدة، وجَمالاً جديداً، لو أنّها تلاقتْ بسيولِ أصواتِنا الحيَّة. آه، ذلك الشَّيء الذي يحتجب، ذلك الذي يستتر، ذلك الذي يختنق، إنْ هو إلّا النُّكران قُدّامَ الحياة. ولماذا، إذن، نحن حتَّى السّاعة لم ننظر في عيون بعضِنا؟ أنخافُ أن نقرأ في تلك النَّظرة وَصمةً ما؟ أنخافُ أن تعترف ملامحُنا بما تعرفُه سرائرُنا؟

بيانكا ماريًّا، بِغُصَّة.

سرائرُنا تعرفُ الشَّيءَ الذي لا يمكن أن يكون، وأبداً لن يكون.

ألِسّاندرو

آه، ثانيةً، حظرٌ للحياة.

بيانكا ماريًّا

سرائرُنا تعرفُ أنَّ ثمَّة أموراً أقوى من الموت، تُفرِّقُ الخَلقَ. بل إنَّ الموت ليس بقادرٍ على تفريقنا بقدر ما هي قادرةٌ على ذلكَ تلك الأمور.

اِلسّاندرو

أيَّةُ أمور؟

بيانكا ماريًّا

أنتَ تعلم. أمورٌ مقدَّسة.

اِلسّاندرو

آه، أشتهي أن أجفِّفَ ألفَ حياةٍ، لكي تشربَ كلُّها من شفتيكِ، يا بيانكا ماريًّا!

بيانكا ماريًّا

لا تحدِّثني بهذه الكلمات!... ثمَّةَ بِجوارِك، في وحدةِ كيانِك، حياةٌ هي أرفعُ قيمةً من حياتي: حياةٌ من طبيعةٍ شِبه إلهيَّة؛ حياةٌ عميقةُ الغَور لم أجرؤ أبداً على الدُّنوِّ منها دون أن ترتعد جميعُ شرايِيني. كأنَّ لا شيء غامضٌ عندَها، ولا شيء غريب. كلَّما استطعتُ المَيلَ نحوَها، شعرتُ بِجَمالاتٍ خفيَّةٍ، لا أعرف كنهها، تعبرُ في أعماقها؛ جَمالاتٍ مجَّدتني وحقَّرتني في نفسِ الوقت. أنا لم أبكِ قطُّ، مثلما على تلك الرُّكب[1]، بكاءً قُربانيًّاً كانَ يهدِّؤني ويلوِّعُني في آنٍ واحد.

---

(1) المقصود: على رُكَب ذلك الجَمَال، المترجم.

ألِسّاندرو

أنتِ لا تعلمين بأيِّ عُقمٍ رهيبٍ وطائش يضربُ الزَّمَنُ القرابين البشريَّة الأكثر عُلواً. الجذور الأكثر قوَّةً تبقى مُعمَّقةً ومعقودةً تحتَ الأرض؛ غيرَ أنَّ تلك القوَّة التَّحتيَّة هي قوَّةٌ عقيم وليسَ تُعطي لا ورقة ولا زهرة. أفلا تشعرين، حين تكونُ حياتُكِ بالقُرب من حياتي، بارتجاجٍ خفيٍّ يشبه جَيَشان الرَّبيع؟ مجرَّدُ حضورِكِ كافٍ أن يمنحَ روحي خُصوباتٍ لا تُحصى. حينما كنَّا، ذلك اليوم، على شُرفةِ الإيوان، في الصَّمت الذي تَلا الصَّخب، والرِّيحُ ترمي شَعرَكِ ناحيَتي، تمدَّدتْ روحي لوهلةٍ قصيرة مُجتازةً كلَّ الحدود لتعانقَ أبديَّةً مليئةً بأشياء مبتكرة؛ غبارُ المقابر كان موجةً من البذور التي تهمُّ أن تتفتَّح، بالنِّسبة إلي. آهٍ لو نجلسُ أحدُنا إلى جَنب الآخَر، في عُزلةٍ، بعيدَين عن دروب البَشر، ساكِنَين وصامتَين كصباحٍ ريفيٍّ؛ فيما كلُّ هَبَّةِ ريحٍ تحمل لنا معها بذرةً رائعة.

بيانكا ماريًّا

إنَّها فيكَ تلك البذرة، فيكَ هي كلُّ القُدرة....

ألِسّاندرو

إنَّها فيكِ أنتِ، فيكِ أنتِ كلُّ تلك الأشياء التي يتحسَّرُ الرِّجال على فقدانها من دون أن يكونوا قد امتلكوها. حين أنظرُ إليكِ، حين أسمعُ إيقاعَ تنفُّسك، أوقنُ أنَّ ثمَّةَ جَمالاتٍ أخرى ليُرفَعَ الحجابُ عنها، نعَماً أخرى ليُستولى عليها، وأنَّ ثمَّةَ في الكون أعمالاً تستحقُّ أن تُنجَز هيَ عذبةٌ ومُبهجة كأجملِ تخاييلِ الشِّعر. لا أعرف كيف أصف لك ذاكَ الشُّعور الذي اختبرتُه يومَ جلستُ إلى جانبِك، عندَ

أوّلِ ظُهورٍ للحبِّ والرَّغبة. كان شعوراً فريداً لا أستطيع لـه شـرحاً إلّـا تشبيهاً بيقظةِ المراهقةِ الأولى.... تلك اليقظـة الـتي تعـود إلى خـاطِري كذكرى مولدٍ بهيج، كفجرٍ وُلِـدتُ فيـه صـوبَ حيـاةٍ أخـرى مُطلَقـةِ الـصَّفاء والقـوَّة بينمـا انفتحـتْ، فجـأةً، فـوقَ رأسـي يـدا القـدَر الموصدَتان. كنت مبحراً، لأوَّل مـرَّةٍ، مـن بوليـا[1] إلى ميـاه اليونـان. وقعَ الأمر في برزخِ كورنث، في خليجِ سـالونا، عنـدَ مرسـى إيـتي[2] حيث توجَّبَ أن أرسو لكي أصعدَ إلى دلفي. لا بدَّ وأنَّك تعـرفين تلـك الأماكن، أنتِ التي جُبتِ كلَّ أصقاع الغموض والجمال المقدَّسين....

بيانكا ماريًّا، كما لو أنَّها في حُلُم.

سالونا! أذكُرُ: خليجٌ أزرق، مليءٌ بدخلاتٍ بحريَّةٍ سريَّةٍ وصغيرة كأنَّها أعماق المَحـار، وردِيَّـةٍ مثـل المَحـار، قُرابـةَ المـساء.... وسـطَ الجبـال الكَهفيَّة، بين الصُّخور الصَّلدة، عند أطراف أرضٍ حمراء محروثة، كانت تتموَّجُ سنابل قليلة ونحيلة، مخلوطةً بجَنَباتٍ من أعشاب عِطريَّة.... أذكُرُ: ذلكَ المساء، فوق جبلٍ، كانت بقايا الحَصاد تشتعل. كان اللهب الثُّعبـانيُّ الخفيف يجري بين الصُّخور بسرعةِ البَرق. لم أرَ قط، مِن قبل، ناراً بالغـةَ الفَرَح وبالغةَ الصَّفاء مثل تلك. وكان النَّسَمُ يحمـل إلينـا عَـرْفَ الأعـشاب المحترقـة. البحـر برمَّتـه بـدا مُـضمَّخاً بـالنَّعنع البـرِّيّ. آلافُ البُوَيـشقاتِ المتعجِّبة كانت تدوِّمُ فوق الحريق، مالئةً بزعيقِها السَّماء....

---

(1) منطقة في جنوب شرقي إيطاليـا مطلَّـة علـى البحـر الأدريـاتيكي في الـشرق والبحر الأيوني إلى الجنوب الشَّرقي، ويُعدُّ هذا الإقليم أحـد أغـنى الأراضـي الإيطاليَّة بالموجودات الأثريَّة، المترجم.

(2) مدينة في مقاطعة فوكيس في اليونان، والتي من مدنها أيضاً دلفـي وديـسفينا وأمفيسا وبوليدروسوس وغيرها، المترجم.

ألِسَّاندرو

وقعَ الأمر هناك، وقعَ هناك. كنتُ غافياً على الجسر، ووجهي ملتفتٌ إلى النُّجوم، في ليلِ آب. صريرُ السَّلاسلِ في البكرات أيقظني في الفجر، وكانت السَّفينة قد رستْ. أنتِ عارفةٌ إلى أيِّ مدىً يبسطُ بَرْناسو[1]، حتَّى هذا اليوم، قداسَةَ رمزِه القديم. عيناكِ، إذ جازتا فيهِ أكثرَ الرُّؤى الأرضيَّة جمالاً وجلالاً، فهما قد كَرَعتا حتماً من النُّور المثاليِّ الذي يطوِّقُ الجبلَ الأبوللِّيَّ في صباحاتٍ صيفيَّة. بَينا أنا مستلقٍ ما أزال، لم أكن لأرى سوى الذُّروات الخياليَّة في قلب الشُّحوب الأخرسِ للسَّماء؛ لكن من الموانئ كان يجيء صياحُ الدِّيكة: صياحٌ رشيقٌ ومُتكبِّر، لنداءاتٍ مُتتابعة وإجاباتٍ متواصلة، هو وحدُه ما كان يملأ صمتَ الطَّوقِ المهيب. آه، أبداً أبداً لن أنسى تلك الوعود المُبهجة التي قدَّمها لحياتي الجديدة، في ذلك المكان وذلك الفجر، الصِّياحُ المُحيي!

بيانكا ماريًا

أجل! أجل! إنَّني أذكُر....

ألِسَّاندرو

بلى، شعورٌ غير معهودٍ، ذلك الصَّباح البعيد، استولى على روحي في اللحظة السَّخيَّة التي انكشف لي فيها فردوسُ فتنتِك. كانت شفتاكِ ساكنتَين، ولكن من كلِّ قطرةٍ في دمِك كانَ يصَّاعدُ غناءٌ يجدِّدُ بعثَ العهودِ القديمة. آه، كنتُ أعرفُ، كنتُ أعرفُ! كنتُ أعرفُ جيِّداً أنَّ

---

(1) برناسو هو جبل أبوللو إله الشِّعر عند الإغريق، ويقع هذا الجبل في وسط اليونان مُشرفاً على مدينة دلفي، المترجم.

جميع تلك العهود، عاجلاً أو آجلاً، سوف تنعقدُ عليَّ. لأجل ذلك انتظرتُ، بأمل. انتظرتُ أن تبلغَ روحي تمامَ نُضجها فتكون أهلاً للاتِّحادِ بالعذوبةِ الأسمى. لقد نمَّيتُ بكلِّ السُّبُل حكمتَها حتَّى تعرفَ كيف تقدِّرُ أصغرَ الهبات حقَّ قدرها؛ وقد سقَّيتُها من كلِّ نبعٍ، سكبتُ عليها من كلِّ عِطرٍ، وأمطرتُها بخُلاصةِ كلِّ شيء، لكي تشعرَ، وهي في غَمرةِ فَيضِكِ، بطبيعتِها النَّهِمة أكثرَ توقُّداً. وانتظرتُ، انتظرت! وأتيتِ أنتِ مثل رسولة، ظهرتِ على دربي حين كنتُ أطَوِّفُ حائراً، يجتاحني القلَقُ من التَّسويفاتِ المطوَّلة. مرَّاتٍ كثيرةً حدَّقتُ فيكِ، استمعتُ إلى نغمةِ صوتِك؛ ولكنَّك في تلك اللحظة ظهرتِ لي كمثلِ مخلوقٍ جديد، تكوَّن بغتةً عن شبحٍ كان يُخفيه.... مرَّاتٍ كثيرةً حدَّقتُ فيكِ دون أن أراكِ، واستمعتُ إليكِ دون أن أسمعك. الآنَ هأنذَه أعترف؛ ولتجدِّدي أنتِ لي عهودَ ذلك الصَّباح البعيد. لن أتخلَّى عن عهدٍ واحدٍ منها، حتَّى ولَو أرغَمْتُ القَدَرَ قَسراً على حفظِها...

بيانكا ماريًّا، تتلوَّى لوعةً.

اصمتْ! اصمتْ! إنَّك تتحدَّثُ كسكران....

ألِسَّاندرو، بلا تمالُكٍ لجذوةِ مشاعرِه بعد الآن.

أحتاجُ إليكِ، أحتاجُ إليكِ! إنْ بدت لكِ الصُّورُ التي أعطيتُها لأفكاري جميلةً، إنْ بدت لكِ كلماتُ شِعري باعثةً على التَّعزِّي، إنْ لمستِ أيَّ سموٍّ في فِكري، - أرجوكِ، أرجوكِ! - لا تُسيئي فهمَ هذه الحاجةِ الحتميَّة التي تحثُّني إليكِ. حياتي في هذه اللحظة هي كمثل نهرٍ ممتلئٍ بمياه الرَّبيع ومُحمَّلٍ بغاباتٍ مُقتلَعة، فهوَ يفورُ ويهدرُ عند المصبِّ المسدود والمُغلَق بوفرةِ حمائلِه نفسها. وظنِّي أنَّك أنتِ وحدكِ، أنتِ وحدكِ القادرة على رفعِ العائق: أنتِ وحدكِ، معَ خَيطِ عُشبةٍ، معَ ساق زهرةٍ في يدكِ الصَّغيرة....

بيانكا ماريًّا

ليسَ أنا، ليسَ أنا.... إنَّ حُلمَكَ يَعميك....

إلسَّاندرو

أنتِ، أنتِ وحدكِ! لقد التقيتُكِ قبلاً في الحُلُم كما ألتقيكِ الآنَ في الحياة. أنتِ تَخُصِّينني كما لو كنتِ مخلوقتي، مُشكَّلَةً بيديَّ، منفوخاً فيكِ من نَفَسي. وجهُكِ مشرقٌ فيَّ مثلما هو مشرقٌ فيَّ فِكري. عندما تختلجُ أشفارُ عَينَيك، فهي تختلجُ بنفسِ الإيقاع الذي يختلجُ عليه دمي وأحسُّ بظلالِ حاجبَيكِ تلمسُ أعماقَ قلبي....

بيانكا ماريًّا، كمثل النَّائهة.

اصمتْ! اصمتْ! أشعرُ بالاختناق.... آه، أنا لن أستطيع العيش بعد الآن، لن أستطيع العيش بعد الآن!

إلسَّاندرو

أجل، لن تستطيعي العيشَ إلَّا في داخلي، إلا لأجلي، ذلك أنَّكِ الآنَ في صميمِ حياتي مثلما هو صوتُكِ في صميم فمِك. آهِ كَم انتظرتُكِ! وبأيِّ يقينٍ انتظرتُكِ! أنا لن أسألك عمَّا فعلتِ في السِّنين التي أمضيناها كالغرباء، مُحتجبَين عن بعضِنا، لامرئيَّين لبعضنا، حتَّى وإنْ كنَّا أحياناً على مقربة، حتَّى وإنْ كنَّا أحياناً نتنفَّس تحت نفسِ السَّماء. فأنا أعرف، أنا أعرف! كنتِ تعمِّدين كينونتكِ في نهر الغموض والجَمال، كنتِ تكرعين الشِّعرَ حتَّى أقاصي أصولِه، كنتِ تحلمين أحلامكِ في نور الأقدار العُليا المُنجَزة. أنا أعرف، أنا أعرف ما فعلتِ وما كنتِ تفعلين، لأنَّني أستطيع أن أرى الآنَ الرُّوحَ البشريَّة الأصليَّة حاضرةً في طراوةِ حُبِّك....

بيانكا ماريًا، بشرُود.

إنَّكَ تعظِّمُ أكثر الخلقِ ضعةً، بأنفاسِك. أنا لم أكن سوى أختٍ طيِّبة: حملتُ من مكانٍ إلى آخر حناناتي الخالصة وراء أخي الذي يعمل.

اِلسَّاندرو

لكن ألم يكن يتنفَّس داخلَ الأخت الطَّيِّبة مخلوقٌ آخَر؟ مخلوقٌ كانَ يضبِّبُ بأنفاسِه ذهبَ النُّقودِ السِّيراكوزيَّة فورَ استخلاصِه من التُّراب الباهت، فيما الدَّمغات الأبديَّة تستعيد بريقها تحتَ دفء أصابعِه. مخلوقٌ كانَ يجثو على ركبتيه عند القبور حيث تضَّجعُ التَّماثيلُ المُنهارة، يخلِّصُ وجوهَها من القِشرة الميتة، ويرى بغتةً في الأرضِ القاتمة صفاءَ وجهٍ إلهيٍّ يبتسمُ من جديد. وفي ماراتون[1]، في ميدان المعركة، كان يقرأ بعينَين مُترعتَين بالدَّمع أسماءَ القتلى الأثينيِّين، مرقوشةً على عمودٍ بطوليٍّ؛ ويلهو في دلفي بفكِّ النُّوطةِ الغامضة لأنشودة الإله أبوللو المحفورة في مرمرِ شاهدٍ مقدَّس. وحيثما بقيَ أثرٌ من أسطورةٍ عظيمة، أو كِسرةٌ من لوحةٍ بهيَّةٍ تصوِّرُ السُّلالةَ المختارة وهي تغيِّرُ قوى العالَم، كان ذلك المخلوق يَعبرُ بعِرفانٍ روحيٍّ مجتازاً أقاصي العصور، خفيفاً كمن يجتازُ حقلاً منثوراً باللُّقياتِ مقتفياً غناءَ البلابل....

---

(1) هي المدينة التي، وفق الأسطورة، انطلق منها العدَّاء فيديبيدس راكضاً بسرعةٍ كبيرة حتَّى مدينة أثينا التي تبعد 50كم لكي يُعلن للأهالي هناك انتصار الجيش على الفُرس بقيادة ملكهم دارا (490 ق.م)، ثمَّ مات بعد ذلك بسبب الجهد الذي بذله، وثمة رواية أخرى تقول أنَّه ركض إلى هناك وإلى إسبارطة التي تبعد 224كم ليخبرهما بالاجتياح الفارسي وليطلب المساعدة الإسبرطيَّة، ويقال أنَّه قطع تلك المسافة في يوم وليلة دون توقُّف، ومن هنا جاءت فكرة سباق الماراتون، المترجم.

بيانكا ماريًا

من كانَ ذلك المخلوق؟ وهل تُراه يعكس حقيقتي؟ لكلِّ شيءٍ بالنِّسبة إليك صورةٌ مختلفة! أنا لم أكن أكثر من مُعينٍ واهنٍ، وإنَّما بإرادتي؛ وغِبطاتُ أخي وشقاءاتُه كانت هي غبطاتي وشقاءاتي. كان قلبي يختلجُ عندما كان قلبُه يختلج....

ألِسَّاندرو

آه، أيُّ لغزٍ هذا وأيُّ بهاءٍ ألَّا يكون لديك التَّبصُّر في ذاتِك؟ أنتِ الأخرى، أنتِ الأخرى، كمثلِ كاسَّاندرا التي تلتقطين ذَهَبها ورمادَها، وضعتِ قدمَكِ على عتبةِ بوَّابةِ ذاتِك. عبرَ طبقاتِ المدائن السَّبع المتناضدة رأت عيناكِ علاماتِ الحريقِ العظيم المنذِرِ في الصَّوت العنيد لتلك التي هي الآن هناك، تحت ظلِّك، صامتة. أليس إذنْ ملغيٌّ عندَكِ خطأ الزَّمن؟ أليستْ إذنْ باطلةٌ عندَكِ أبعادُه؟ كان محتوماً عليَّ أخيراً أن أعثرَ في هكذا مخلوقٍ بهيٍّ وهُياميٍّ على وَحدة الحياةِ هذه، فأوجِّه نحوها جَهْدَ فنِّي. أنتِ وحدَكِ تمتلكين سرَّ الألوهة. حين ترفعُ يداكِ التَّاجَ الذي يزيِّن جبينَ العرَّافة، تبدو حركتُكِ استحضاراً للرُّوح البائدة؛ وحدُه مشهدُ نُشورٍ خياليٍّ قادرٌ أن يصفَ فعلاً بسيطاً وخالصاً مثل هذا. ثمَّة في أعماقِك سَطوةُ بَعثٍ قياميَّة، أنتِ نفسُكِ غافلةٌ عنها. إنَّ أبسط فِعلٍ من فِعالك قمينٌ أن يكشفَ لي حقيقةً كنتُ أجهلُها. والحبُّ كمثل الفِكر: يتألَّقُ على قدْرِ الحقائق التي يكشِفُها. قولي لي إذن، قولي لي أيُّ شيءٍ تُراه أقدس من هذا أو أكثرَ استحقاقاً من أن تكوني مصونةً ومُمجَّدةً في عليائك فوقَ كلِّ محرَّمٍ وضدَّ كلِّ محظور.

بيانكا ماريًّا، فاقدةً قواها.

لا، لا.... أنتَ ثمِلٌ حقّاً. ذاكَ الذي تـراهُ فيَّ موجـودٌ في بؤبؤيـكَ فحسب. كلماتُك تخلقُ من العَدَم الصُّورةَ التي تريدُ أن تعـشقَها. لهـيَ فيكَ أنتَ تلك البذرة، فيكَ أنتَ كلُّ القدرة....

ألِسّاندرو

ما قيمة ذلك؟ ما قيمة ذلك؟ كلُّ القدرةِ، التي فيَّ، تظـلُّ موصـدَةً وتتبدَّدُ في ألفِ دُوَّامةٍ باطنيَّـة إذا مـا الرَّغبـةُ الإلهيَّـة، الـتي فيـكِ، لم تستَمِلْها أو تحرِّضها على التَّجلّي في مجالي الغِبطة. الغِبطـة، آه، إنّـي أسألُكِ الغِبطة! منذ أيّام، حين أعطيتُكِ الزَّهرَ، كانت آثار الدُّموع على وجهك؛ ولكنْ حواليكِ، في وهجِ الـشَّمس، كانـت عُفْـراتُ شَـعرِكِ اللهفى كلُّها تتنفَّسُ الغِبطة. ينبغي أن أكون حرّاً ومُغتبطـاً بحقيقـةِ حبِّـي لكِ من أجلِ أن أحظى في النِّهاية بالشَّعر الأبديِّ الذي يشتهيه كـثيرون. أحتاجُ إليكِ، أحتاجُ إليكِ!

بيانكا ماريًّا، مُستجمِعةً قواها.

حسناً إذن، قُل، قُل: ما أنـتَ صـانعٌ؟ مـا أنـتَ صـانعٌ بي، بمـن أحبُّ أنا، وبمن تُحبُّ أنت؟ قُل!

ألِسّاندرو

دعي القَدَر يضطلعُ بهذا....

بيانكا ماريًّا

ولكنِ الألم؟ ماذا عن الألم؟ ألا تشعرُ أنَّ ثمَّة غمامةً من الألم فوق رؤوسنا تتكثَّفُ وتعتصرُنا؟ ألا تشعرُ أنَّ روحاً عزيزةً مقرَّبة تتألَّم من تحسُّسِ خطيئةٍ أو من تهيُّبِ إثمٍ فيما هي عاجزةٌ عن مُعارضةِ الأمر؟ كنتَ تتحدَّث عن دموعي.... آه، ليتني أستطيع أن أصفَ لك لوعتي في ذلك اليوم، ليتني أستطيع أن أصف لك شفقتي وحَيرةَ أمري! *إنَّها* تعلم، *إنَّها* تعلم. شعوري يُنبئني *أنَّها* تعلم. يداها تُشعَّان بالحياة ـ إنَّهما في غاية الحياة! ـ لقد كانتا تنبُشان روحي مثلما يُنبَشُ ثوبٌ في كلِّ ثنيَّةٍ منه. محضُ تعذيبٍ يفوقُ الوصف! كان سرِّي في يديها، وكانت هي تنزعُ بتلاتِه كما تُجرَّدُ زهرةٌ مُقتلَعة. ومع ذلك كنتُ أشعرُ في داخلها بعذوبةٍ غريبة تمتزجُ شيئاً فشيئاً بقنوطها؛ وبدا لي أنَّ قلبها يُعتَصَرُ مثل عُقْدَةٍ وينفتحُ مثل كأسٍ زهريَّةٍ، مرَّةً بعد مرَّة، وشعرتُ كما لو أنَّها تنهضُ بكلِّ كَدَر الحياة....

لحظة صمت.

اِلسَّاندرو، مُرتاباً.

تعتقدين أنَّها على يقينٍ من شكوكها؟

بيانكا ماريًّا

إنَّها على يقينٍ.

لحظة صمت.

وماذا عنه؟ ألا تعتقدُ أنَّ بذرة الشَّكِّ موجودةٌ في داخله هو الآخَر؟

اِلسَّاندرو

أوه لا! ما من بذرةِ شكٍّ في داخلِه. أنا على يقينٍ من هذا....

بيانكا ماريًّا

لكن ماذا عن هـذا التَّغيُّـر العجيـب في أطـوارِه، مـاذا عـن حزنِـه السِّرِّيِّ وشِبه المتوحِّش، ماذا عـن مَـسلكِه نحـوي.... إنَّـه يحـدِّق فيَّ أحياناً بنظرةٍ لا تُحتمَل. وعندما أدنو منه، عندما أمـسك بيديـه، أشـعر أحياناً أنَّ نفوراً عنيفاً يطلعُ عليَّ من كامل كينونتِه....

ألِسَّاندرو

إنَّكِ واهمةٌ يا بيانكا ماريًّا. ما مِـن بـذرةِ شـكٍّ في داخلِـه. غـير أنَّ مرضَه يُهيجُه بغرابة....

بيانكا ماريًّا

مرضُه! أنتَ أيضاً تعتقدُ أنَّه مريضٌ إذن؟

ألِسَّاندرو

إنَّ أعصابَه مُتهالِكةٌ مِن توتُّرٍ طويلٍ وهائل. تخيُّلاتٌ مُبهمة أحـسبُها تُقلقُ روحَه الهشَّة. يقيناً، ثمَّـة شـيءٌ مـا غـامضٌ في أعماقِـه.... لكنَّـه سوفَ يخبرني، سوفَ يرفعُ لي الحجابَ عـن الـشَّبح الـذي يُلاحقُـه، سوفَ يُفصح لي عن مخاوفِه. لا يسلمُ من العقاب رجلٌ يكشفُ القبورَ ويرى وجوهَ الموتى؛ وأيُّ موتى!

لحظة صمت.

لسوفَ يبوحُ لي. ليلةَ البارحة كـان علـى وشـك أن يفعـلَ هـذا.... سوفَ أبحث عنه، هذا المساء. ألا تعرفين أين تُراه مضى؟

بيانكا ماريًّا

لا أعرف. ربَّما إلى نبعِ بيرسيا. ذلك هو المكان الذي يؤثِرُه عندما يرغبُ في الوحدة. الماء! الماء! آه، أيُّ شيءٍ في العالَم أروع من الماء؟ كلُّ شيءٍ هنا تجفَّف؛ العطشُ في كلِّ مكان، العطش.... ذلك هو الملاذ الوحيد: هناك حيث ثمَّة همسٌ عذبٌ ينوِّمُ الأفكار، ينوِّمُ الهواجس.

تبتعد عن طاولة الذَّهبيَّات، متوجِّهةً صوب الشُّرفة، بهوادةٍ وبما يشبه الانقياد.

الماء! الماء! مُذ متى لم أشاهد نهراً كبيراً يجري في أرضٍ مُعشِبة مُخضرَّة، أو بحيرةً وسطَ تاجٍ من الأحراش، أو شلَّالاً أشدَّ بياضاً من الثَّلج....

أِلسَّاندرو

يعترضُها فجأةً أثناء مرورِها ويُمسكُ يديها، مخطوفَ اللون من الرَّغبة.

آهٍ فتنة، فاتنة، فاتنة، وعذبةٌ حقَّاً، ونضيرةٌ بالكامل حقَّاً، كمثلِ ماءٍ يجري، كمثل ماءٍ يُروي.... كلُّ هذا الجمال، كلُّ هذا الجمال، لكأنَّي به يُراقُ على حواسِّي مثل ماءٍ حيٍّ، مثل ماءٍ يختلج، ويخفق.... آهٍ فاتنة، فاتنة، ولا في عينَيْ أحدٍ مثلما في عينيَّ!

بيانكا ماريًّا، مسترخيةً.

اترُكني! اترُكني يا أِلسَّاندرو!

ألِسَّاندرو، كمثل ثمِل.

أحِسُّ الحبَّ في جميع شرايينك، في شَعرِك، يصعدُ يصعدُ؛ أسمعهُ ينبجسُ تحتَ جفنَيكِ.... أشمُّ عَرْفَ دموعكِ تحتَ جفنَيكِ.... وجهُكِ بتمامِه يثورُ في داخلي.... أنتِ بتمامِكِ في داخلي، مثلَ نُغبةٍ شربتُها....

يميلُ نحوَ شفتيها، ليقبِّلها. تطفُرُ هي إلى الوراء، مُضطربةً، بالكاد تلجمُ صرختَها. يمكثان الواحد تلقاءَ الآخَر، لاهثَين، وقد فقدا القدرة على الكلام.

بيانكا ماريًّا، مرتعدةً.

إسمعْ!

ألِسَّاندرو

ماذا؟

بيانكا ماريًّا

صوتُ تلك.

كلاهما يرهفان السَّمع للحظات.

إنَّه صوتُها، إنَّه صوتُها. هي تبحثُ عنَّا؛ يقيناً، هي تبحثُ عنَّا.

ألِسَّاندرو

لا تخافي، لا تخافي.

بيانكا ماريًّا

إنَّها تعرفُ كلَّ شيء، إنَّها تعي كلَّ شيء. لا يمكنُ أن نُواري.... حالما تجتازُ العتَبَة سوف تسمع وجيبَ قلبَينا. لا يمكنُ أن نُواري....

ألِسَّاندرو، باغتمامٍ.

ليس ضرورياً أن نُواري شيئاً عن النَّفس التي تستحقُّ الحقيقة، يا بيانكا ماريًّا.

بيانكا ماريًّا

لكنِ الألم، لكنِ الألم....

ألِسَّاندرو

إنَّها أمَةُ الألم؛ ولا شيء ممكنٌ في سبيل عتقِها. هي في حياةٍ أخرى.

بيانكا ماريًّا

في حياةٍ أخرى!

تحني رأسها وتمشي صوبَ الباب.

المشهد الثّاني

آنّا تظهر على العتبة تقودُها **المربِّية**. وجهُها برمّته يُفصح عن حزنٍ فائق السّكينة.

آنّا

بيانكا ماريًّا!

بيانكا ماريًّا، آخذةً بيدِها.

هأنذِه، إنّني هنا.

آنّا

اذهبي، اذهبي أيّتها المربِّية.

المربِّية تختفي. **بيانكا ماريًّا** تقودُ العمياء نحوَ **ألِسّاندرو**.

ألِسّاندرو!

ألِسّاندرو

أنا هنا، يا آنّا.

العمياء تمدُّ يدها نحوَه. هو يُمسك بها. تظلُّ هي للحظاتٍ قليلةٍ في صمتٍ، هكذا، بين الاثنين. ثمّ تتملّص منه وتجذب **بيانكا ماريًّا** إليها.

آنّا

أعطِني قبلةً، يا بيانكا ماريًّا.

تمنحُها قُبلةً على شفتيها.

يبدو لي كأنّك مكثتِ بعيدةً عنّي أمداً غير محدود.... ماذا كنتِ تفعلين؟

بيانكا ماريًّا، كمن نال صفعةً، تتردَّد في الإجابة.

ماذا كنتِ تفعلين؟

بيانكا ماريًّا، بِشُرود.

لقد مكثتُ هنا، طوال اليوم تقريباً، أساعدُ أخي.

اِلسّاندرو يخرجُ إلى الشُّرفة ويبقى هناك متّكئاً على الدَّرابزين مسرِّحاً نظرَه عبرَ الرِّيف.

آنّا

هذه هي حجرة الذَّهبيَّات إذنْ؟

بيانكا ماريًّا

هذه هي حجرة الذَّهبيَّات.

آنّا

ورماد الموتى؟

بيانكا ماريًّا

ورماد الموتى.

آنّا

أين هو رمادُ الموتى؟

بيانكا ماريّا

هناك، في زهريّاتِ النُّحاس.

آنّا

قوديني إليه: أرغب في لمسِه.

بيانكا ماريّا

تقودُها نحوَ واحدةٍ من الزَّهريّات اللحديَّة.

هو ذا: ههنا رمادُ كاسَّاندرا؛ وهناك هو رمادُ المَلِك.

آنّا، بصوتٍ هامس.

كاسَّاندرا! هي الأخرى كانت رائية.... كانت ترى دوماً فيما حولَها الموتَ وسوء الطَّالع.

تنحني فوق الزَّهريَّة، تأخذ حفنةً من الرَّماد وتجعلها تنثال بين أصابعها.

كَم هو عذبٌ رمادُها! ينثالُ بين الأصابع كمثلِ رملِ البحر.... أنتَ كنت تقرأ بالأمس، يا أِلسَّاندرو، كلماتِها. بين صرخاتٍ مُرعبة كان ثمَّة تنهيدةٌ لامتناهيةِ العذوبةِ والكَرب. كان الشُّيوخ يُشبِّهونها بصوت "البلبل الأصفر المُحمَرّ". ماذا كانت تقول، ماذا كانت تقول كلماتُها عندما كانت تستذكر نهرها الجميل؟ وعندما كان الشُّيوخ يسألونها عن حبِّها للإله[1]؟ ألا تتذكَّر؟

---

(1) المقصود الإله أبولُّلو، ذكرنا قصَّتها معه سابقاً، المترجم.

بيانكا ماريًا

هو لا يسمعكِ، يا آنّا.

آنّا

لا يسمعني؟

بيانكا ماريًا

إنَّه على الشُّرفة.

آنّا

آه، على الشُّرفة....

بيانكا ماريًا

ملتفتةً نحو الشُّرفة.

إنَّـه يرنـو إلى المغيـب. مغيـبٍ في غايـة الرَّوعـة. في مـا وراء أرطَماسـيو[1] السَّماءُ برمَّتـها تـشتعل. قمَّـة الأركـانيو تتـوهَّج وكأنَّهـا مِشعَل. يصلُ حتَّى هنا الانعكاسُ الأحمر؛ إنَّه يضربُ الذَّهب....

آنّا

اجعليني قربَ الذَّهب.

---

(1) اسم بلدة هناك، المترجم.

بيانكا ماريًّا

تقودُها صوبَ إحدى الموائد.

هي ذي غنائم كاسَّاندرا.

آنّا، تتلمَّس بنعومة.

أهوَ هنا قِناعُها؟

بيانكا ماريًّا، توجِّه يدَ العمياء.

هوَ ذا، هنا.

آنّا، تتلمَّس القناع الذَّهبيَّ.

كم هو كبيرٌ هذا الفم! جَهد النُّبوءات المَهول قد وسَّعَه. كانت تصرخُ، تلعنُ، تئنُّ من دون توقُّف. هل تتخيَّلين فمَها أثناء الصَّمت؟ كيف تُراه يكون، في الصَّمت، شكلُ شفتيها المكدَّرتين؟ يا لِلهول، عندما تصمت، عندما تأذن لها الرُّوح بهدأةٍ قصيرةٍ ما بين صرختين! أرغبُ هذا المساء أن تقرئي لي تلك الحواريَّة بينها وبين الشُّيوخ. أليست في ذاكرتِك كلماتُها تلك ـ وهي تتحدَّث عن حبِّ الإله لها والشُّيوخ يسألونها إن كانت وهبتْ جسدَها للمصارع؟ أتخيُّلها محمرَّةً كلَّها من الخجل في تلك اللحظة.... ـ "لقد أعطيتُ وعداً" تقولُ هي "لقد أعطيتُ وعداً...." أليست في ذاكرتِك كلماتُها؟

بيانكا ماريًّا، في اضطرابٍ متزايد.

لا، آنّا. في المساء أقرأ لكِ....

آنّا

"لقد أعطيتُ وعداً، لكنّي أخلفتُه" تقول. لقد خَدَعَتِ الإله، الذي انتقم. لا أحد يصدّق نبوءاتها بعد الآن! كانت وحيدةً، في قمّةِ بُرج، صُحبةَ الحقيقة.

لحظة صمت. فيما تواصلُ هي تلمُّسَ الغنائم.

أنتِ أيضاً وقعتِ، مثل إلِسّاندرو، في حبِّ هذا "البلبل الأصفر المُحمرّ؟"

بيانكا ماريًّا

إنَّ قدَرها قاسٍ. إنَّها شهيدة....

آنّا

لقد كانت في غاية الجمال؛ كانت جميلةً مثل أفروديت. آه، ليوناردو رأى ذلك الوجه تحت قناع الذَّهب! يا لِلغرابة: يُخيَّل إليَّ أنّي أنا الأخرى رأيتُه.... ما ظنُّكِ يكون لونُ عينيها؟

بيانكا ماريًّا

ظنّي أنَّهما سوداوان.

آنّا

لم تكونا سوداوَين، إنَّما بدتا كذلك، ذلك أنَّ البؤبؤَين داخلَ اللهب القَدَري كانا مفتوحَين لالتهام ألوان الطَّيف السَّبعة. أتخيَّلُ أنَّه، عندما كانت تصمت لتجفِّف زبدَ شفتيها الشَّاحبتين، كانت عيناها

تبدوان عذبتين ومكروبَتَين مثل بنفسجتَين. هكذا كانتا حتماً، قبل أن تنغلقا إلى الأبد. هل تذكرين، يا بيانكا ماريًّا، آخِرَ الكلمات؟ أليست في ذاكرتِك؟

بيانكا ماريًّا

هذا المساء أقرأ لكِ، آنًا....

آنًا

حديثُها كان عن ظلٍّ يمرُّ على كلِّ شيء، وعن إسفنجٍ نديٍّ يمحو كلَّ أثر. أليس كذلك؟ "وعليه" تقولُ هي "وعليه فإنَّ أكثر نُواحي إنَّما هو على الآتي." هذه هي آخِرُ كلماتِها.

لحظة صمت. تمسكُ بين يديها ميزاناً من الذَّهب.

اسمعي!

بيانكا ماريًّا

إنَّها صقورُ جبل إيبيا، تزعقُ.

آنًا

يا لَه زعيقاً مختلفاً، هذا المساء!

بيانكا ماريًّا

عندما يكون الهواء مضطرماً، فإنَّها تزعقُ بقوَّةٍ أكبر.

لماذا تزعق؟ لكم أودُّ أن أفهمَ أصوات الطُّيور، مثل **العرّافة**. لم أكن أعرفُ شيئاً عن هذا المشهد من طفولتها، قبل أن يخبرني به ألِسّاندرو. كانت قد تُركتْ ذات ليلةٍ في معبد أبوللو؛ وفي الصَّباح وُجدت مستلقيةً على المرمر، ملفوفةً بالدَّورات اللولبيَّة لأفعى كانت تلعقُ أذنَيها. منذ ذلك الوقت صارت تفهم كلَّ الأصوات المتناثرة في الهواء. لكانت فهمَتِ الآن زعيقَ الصُّقور....

بيانكا ماريًّا، مثلَ المنسيَّة.

زعقاتُ فرح، زعقاتُ فرح. يا لِهذي المخلوقات الفاتنة والوحشيَّة، ليتكِ ترينها! إنَّها مفعمةٌ بالحياة، جميعها مسلَّحةٌ بالحياة. لها ألوانُ الصُّخور: الأجنحة بُنّيَّة، الجِسم مُورَّد، الصَّدر مُبيضٌّ، الرَّأس رمادي. لا شيء أكثر لُطفاً وأكثر ضراوةً من رؤوسها الصَّغيرة حيث تلمعُ العيون السَّوداء داخلَ طوقٍ أصفر. البارحة، وأنا أراقبها في السَّماء، أطلق أحد الحرَّاس النَّار على صدر أحدها، من بندقيَّته. سقطَ قريباً من قدميَّ؛ فالتقطتُه. برغم جرحه المميت، حاولَ أن ينقضَّ على يديَّ. الدَّمُ خنقَ حنجرتَه، وكان يندفقُ عبرَ منقارِه؛ شيءٌ كمثل الشَّهقةِ كان يرجُّه رجّاً، فيما القطرات الحُمر تنهمر واحدةً إثر أخرى. ثمَّ ذبلت عيناه، برائتُه تَضامَّتْ، ورأسه الصَّغيرة انحنتْ على صدره. شهقةٌ دمويَّةٌ واحدةٌ فحسب بعد ذلك. كانت الأخيرة. أمسى في يدي لا أكثر من خِرقة.... هكذا، حياةٌ على هذه الشَّاكلة حرَّةٌ، وعلى هذه الشَّاكلة عنيفةٌ، أُخرِسَتْ بغتةً، بعد أن كانت قبل قليلٍ تختلجُ في السَّماء!

آنّا

إيهِ لكِ كيف تتحدَّثين عن الحياة وتتحدَّثين عن الموت، يـا بيانكـا ماريًّا!

لحظة صمت.

ألِسَّاندرو على الشُّرفة؟

بيانكا ماريًّا

على الشُّرفة.

آنّا

ماذا يفعل؟

بيانكا ماريًّا

ينظرُ بعيداً.

لحظة صمت.

آنّا

ما هذا الشيء الذي بين يديَّ؟

بيانكا ماريًّا

إنَّه ميزان.

آنّا

آه، ميزان!

تلمسُ كِلتا الكفَّتين.

كان موضوعاً على صدر الأميرة الميتة؟

بيانكا ماريًّا

على الصَّدر.

آنّا

لكي تـزنَ الأقـدار! لكنَّـه لـيس مـضبوطاً، أليس كـذلك؟ لـيس مضبوطاً. كأنَّه يميل إلى أحد الجانبين.

بيانكا ماريًّا

إنَّه خَرِب. ينقصه في جانـبٍ إحـدى شـرائط الـذَّهب الـتي تحمـلُ الكفَّة.

آنّا

في أيِّ جانب؟

ألِسَّاندرو، عائداً من الشُّرفة.

هاك هو ليوناردو! إنَّه في طريقِ العودة.

بيانكا ماريًّا

من أين؟

ألِسَّاندرو

من نبع بيرسيا.

آنّا، واضعة الميزان.

أتحبِّين أن ننزلَ إلى نبع بيرسيا، يا بيانكا ماريًّا؟ أتحبِّين اقتيادي إلى هناك؟ سوف نجلس قليلاً على الصَّخرة، قربَ عيون الماء، نتنفَّس عبقَ النَّعناع والرَّيحان، ما يهدِّئُ الخواطر.

بيانكا ماريًّا

أنا معكِ، يا آنّا. هي ذي ذراعي.

المشهد الثّالث

يدخل **ليوناردو** ويُقلِّب على الجميع نظراتِه البرَّاقة والمُضطربة. وجهه يُفصح عن جزعٍ متواصِل وعن مُكابدَةِ كدَرٍ باطنيٍّ عظيم.

ليوناردو، مندفعاً نحو العمياء في مشهدٍ ودود.

آه، أنتِ أيضاً هنا يا آنّا....

آنّا

أنتَ آتٍ من النَّبع؟

ليوناردو

أجل، أذهب إلى هناك.... أنزل إلى هناك كلَّ يومٍ تقريباً، قُرابةَ المغيب. إنَّها السَّاعة التي يصير فيها عبق الرَّيحان قويّاً كأنَّه البَخُور ويفعلُ كأنَّه الخشخاش. هذا المساء هو في غاية القوَّة؛ حدَّ أنَّه التصق بالماء. حين شربت، بدا لي في الماء مذاقُ الزَّيت العِطريِّ....

آنّا

هل سمعتِ، يا بيانكا ماريّا؟

بيانكا ماريّا

تريدين أن نذهب يا آنّا؟ هي ذي ذراعي.

آنّا، ممسكةً بذراع دليلها.

نحن نازلتان صوبَ النَّبع.... ها ألِسَّاندرو، هل غرُبت الشَّمس؟

ألِسَّاندرو

لقد غرُبتْ.

آنّا

أليس ثمَّة ضوءٌ الآن؟

ألِسَّاندرو

بلى، بلى، ثمَّة بقيَّةُ ضوءٍ بعد.

آنّا

لأجل ذلك تزعقُ الصُّقور.

ألِسَّاندرو

تزعقُ حتَّى ساعةٍ متأخِّرةٍ هذه الصُّقور: حتَّى بزوغِ أُولى النَّجمات....

آنّا

وداعاً.

تخرجُ صُحبةَ بيانكا ماريًّا.

المشهد الرابع

ألِسَّاندرو يقف على الشُّرفة، متَّكئاً على إحدى الدَّعامات، يراقبُ المدينة من جديد. **ليوناردو** يقتفي بنظرتِه الأختَ التي تسوقُ العمياء، إلى ما بعد العتبة.

ألِسَّاندرو

ما تلك النِّيران هناك، في أعالي لاريسَّا[1]؟ انظُر! واحدة، اثنتان، ثلاثُ شُعَلٍ من النَّار.... وثمَّة أخرى هناك، عندَ الليكونه[2]. أتَرى؟ أتَرى أعمدة الدُّخان؟ لكأنَّها ساكنةٌ بلا حراك. ليس تهبُّ في الجوِّ نفحةٌ واحدة. يا لِلسُّكون اللامتناهي! إنَّها واحدةٌ من أجمل وأفخم الأمسيات التي رأيتها في حياتي.

لحظة صمت. **ليوناردو** يدنو من صديقه، يضعُ يداً على عَضُدِه بطريقةٍ أخَوِيَّة، ويمكث صامتاً.

---

(1) مدينة يونانية ترتفع حوالي 75 متراً وسط سهل ثيساليا على ضفاف نهر بينيوس أو بينياس، وتعود تسميتها إلى العصر ما قبل الهيليني وهي تعني القلعة، المترجم.

(2) ربَّما المقصود تمثال لِـ "ليكونه" وهو مقاتل طرواديّ ورد ذكره في إلياذة هوميروس، المترجم.

انظرْ روعةَ اللونِ والخطَّ الذي ترسمه الجبال على السَّماء! كلَّ مرَّةٍ أنظر إليها، في المساء، أجدني أصنع تلقائيّاً مشهد توقيرٍ لألوهيَّتها. ما مِن أرضٍ يشعرُ المرء فيها أنَّ ثمَّة ما هو قدسيٌّ في ملامح الجبال البعيدة مثل هذه الأرض. ألست مُحقّاً؟

ليوناردو، بصوتٍ متغيِّر.

حقّاً. ينبغي الابتهالُ إلى الجبال، ذلك أنَّها نقيَّة.

ألِسَّاندرو

لَكَم هي نقيَّةٌ، هذا المساء! لكأنَّها معمولةٌ من ياقوتٍ أزرق. وحده الأركانيو ما يزال موردّاً: قمَّته هي دوماً آخرُ ما يخبو. ولكن تلك النِّيران! ها إنَّها تتضاعف، تتوالدُ أسفلَ فأسفلَ على امتداد الهضبة وصولاً إلى السَّهل.... انظُر، عند سفحٍ لاريسَّا، ثمَّة تُويجُ نار. غريبٌ أنَّ أعمدة الدُّخان بالغةُ البَياض. كأنَّها مُنارةٌ بضوءٍ آخَر: من قمرٍ غير مرئي. أليس كذلك؟ يا لَها أعمدةً دينيَّة: ربَّما كانت ترفعُ ابتهالات البشر.

ليوناردو

ربَّما. البشر يتوسَّلون الماء لأجل الأرض العطشى.

ألِسَّاندرو

مهولٌ هو هذا العطش.

لحظة صمت. **ليوناردو** ينأى قليلاً، يخطو بضع خطواتٍ داخل الحُجرة حيث بدأ الظِّلُّ يتكثَّف حول الكنوز التي تشعُّ بلمعانٍ مضطرب. يبدو عاجزاً عن احتواء قلقِه الباطنيِّ. يقترب من الطَّاولة التي تضَّجع فوقَها رِمَّةٌ كاسَّاندرا. **ألِسَّاندرو** يتبعه بنظراتِه القلِقة.

آه، انظرْ إذا ما كانت مُجوهراتُ كاسَّاندرا حسنةَ التَّنسيق.... كانت بيانكا ماريًّا منهمكةً في ترتيبها عندما أتيتُ أنا باحثاً عنك. لقد أردتُ مساعدتَها؛ لكن عوضَ ذلك.... تحادثنا.... والسَّاعةُ انقضتْ في طرفةِ عَين.... تحدَّثنا عنكَ كذلك يا ليوناردو.

ليوناردو، مضطرباً.

عنِّي؟

اِلسَّاندرو

عنكَ: عن سرِّك....

ليوناردو، مكسوّاً بالشُّحوب.

عن سرِّي؟

اِلسَّاندرو، مقترباً من صديقه وآخذاً يدَه بعذوبة.

ماذا لديك؟ قُل لي: ماذا لديك؟ لماذا ترتجفُ هكذا؟

ليوناردو

لا أدري لماذا أرتجف....

اِلسَّاندرو

أنا لم أعد إذن شقيقكَ بالرُّوح؟ منذ أيَّامٍ كثيرة، منذ أيَّامٍ كثيرة وأنا أنتظر أن تتحدَّث إليَّ، أن تُفصح لي عن ألمِك.... ما عُدتَ تثق بي إذنْ؟ ما عدتُ بالنِّسبة إليك ذلك الذي يعي كلَّ شيءٍ، والذي يُمكن أن يُفضَى إليه بكلِّ شيء؟

ليوناردو، لاجما الغَصّة التي تعتصرَ حلقه.

بلى، بلى يا ألِسَّاندرو، أنتَ دوماً ذلك المرء.... أيُّ شيءٍ لستُ مديناً به لكَ؟ ما كنتُ أنا، قبل أن أعرفكَ، قبل أن أحتكَّ بروحك؟ ما كنتُ أنا؟ كلُّ شيءٍ هوَ بفضلِك: كَشفُ الحياةِ هذا.... أنتَ جعلتني أحيا من لهيبِ شغفِك؛ جعلتَ كلَّ الأشياء الميتة حواليَّ تحيا.... آه، أيُّ قيمةٍ لكلِّ هذا الذَّهب، لو لم أحظَ بمعرفتك؟ لا أكثر من قيمة معدنٍ خامل. فأنتَ، أنتَ وحدكَ من جعلني جديراً بأن أشهدَ المعجزة....

ألِسَّاندرو

والآن؟ أفلا أستطيع فِعلَ شيءٍ تلقاءَ ألمِك؟

ليوناردو، شارداً.

لا أعرف إن كنتُ، لا أعرف إن كنتُ.... لا أعرفُ إنْ كان هذا الألم....

ألِسَّاندرو

أيُّهَ الصَّديق البائس! منذ سنتين، منذ سنتين وأنت هنا، في مدينةِ العطشِ هذه، عند سفحِ الجبل الأجرد هذا، أسيراً لسحرِ المدينةِ الميتة، تحفرُ وتنبشُ، تحفرُ وتنبشُ، صحبةَ الأشباح المرعبة التي هي دوماً نصبَ عينيك وسطَ الرِّمال المتوقِّدة.... فكيف لقواكَ ألَّا تنهار بعد هذا؟ بل كيف أنَّها لم تنهَرْ قبل هذا؟ لِعامين تامَّين وأنت تتنشَّقُ العطنَ المُهلِك لتلك المدافن الدَّفينة، منحنياً تحت هول القدر الأكثر مأساويَّةً بين جميع الأقدار التي ابتلعَتْ سُلالةً بشريَّةً على مدى الدُّهور. كيف استطعتَ أن تقاوم؟ كيف لم تَخْشَ من الجنون؟ إنَّك تبدو كرجلٍ مُحطَّم؛ كم من مرَّةٍ بدت لي عيناكَ كعينيِّ مجنونٍ أهوج.

ليوناردو

أجل، أجل، أنتَ مُحقٌّ: إنّي مُحطَّم....

ألِسّاندرو

لماذا لم تُصغِ إليَّ؟ عندما ناديتني، عندما أتيتُ إليك، وكنتَ مغزوّاً بحُمّى خبيثة. كنتُ أحدسُ الخطر.... وأردتُ أن أنجّيكَ من الوسواس المُحيق بك، أردتُ اقتيادك إلى مكانٍ آخر، وإيقافَ العمل الوحشيِّ. هل تذكر؟ لَكُنّا قضينا الرَّبيع في زاكينثوس[1]، على البحر، بعيداً عن هنا بعضَ الشَّيء.... غير أنَّ عِنادَكَ لم يكن ليُقهَر: كانت كينونتُك منوَّمة.... أمّا الآن فينبغي الرَّحيلُ دون تسويف، ينبغي المُضيُّ صوبَ المياه، صوبَ الأحراش، صوبَ الأرض الخضراء.... ينبغي أن تترُكَ نفسَكَ تُعانَقُ بأرضٍ خضراء بهيَّة، أن تهدهدَ نُعاساتِكَ غائصاً في الحشائش، أن تشعرَ بأفكارٍ جديدةٍ تلجُكَ رويداً رويداً....

ليوناردو

أجل، أجل، أنتَ مُحقٌّ: ينبغي الرَّحيل، ينبغي المُضيُّ بعيداً.... إلى أين؟ إلى أين؟ وهي أيضاً.... وهي أيضاً، شقيقتي، بيانكا ماريّا.... ستأتي معنا.... هي أيضاً ستأتي معنا....

---

(1) جزيرة يونانية في البحر الأيونيِّ، ذكرها هوميروس في الإلياذة والأوديسَّة، كما خصَّها الشّاعر الإيطالي أوغو فوسكولو بسوناتته المشهورة "إلى زاكينثوس"، المترجم.

ألِسَّاندرو، مُبهماً القَول، مُرتاباً.

هي أيضاً.... لستَ تعتقدُ أنَّها هي أيضاً تختنق، أنَّها هي أيضاً تحتاجُ أن تتنفَّس، أن تحيا.... إنَّها تتألَّم لأجلك، إنَّها تبكي لأجلك....

ليوناردو

تبكي؟ تبكي؟

ألِسَّاندرو

هي تخشى أنَّك لم تعُد تحبُّها، أنَّك فقدتَ كلَّ رقَّةٍ كانت لديك ذات مرَّةٍ نحوَها....

ليوناردو، شاحباً وضعيفاً.

فقدتُ كلَّ رقَّةٍ كانت لديَّ.... أحقَّاً أنَّها تبكي؟ تبكي؟

ألِسَّاندرو

يقبضُ على يديه من جديد، بشيءٍ من العنف.

بلى، ماذا لديكَ إذنْ؟ ماذا لديك؟ لماذا ترتجفُ هكذا الآنَ؟

ليوناردو، باندفاعٍ يائس.

آهٍ لو تستطيع تنجيتي!

اِلسَّاندرو

أنا يجب أن أنجّيك، أنا أريد أن أنجّيك يا ليوناردو.

ليوناردو

أنتَ لا تستطيع ذلك، لا تستطيع.... إنَّني ضائع.

يخطو بضع خطواتٍ عبر الحُجرة، بشرودٍ كامل؛ يتوجَّه نحو الشُّرفة؛ ثمَّ يتوجَّه نحو الباب، ويُغلِقُه. يعود إلى **اِلسَّاندرو** مُهتزّاً كمن اجتاحَته نوبةُ هُلاسٍ مُباغتة.

كيفَ أفصِحُ لك! كيفَ أفصِحُ لك!... آه، إنَّه لأمرٌ رهيب، أمرٌ رهيب....

اِلسَّاندرو، مصدوماً بردَّة فِعلِه وبكلماتِه.

ليوناردو!

ليوناردو

يتهاوى على كرسيٍّ، ويعتصرُ صدغَيه بين راحتَيه.

إنَّه أمرٌ رهيب....

اِلسَّاندرو

يأخذ يديه ثانيةً مُحتوِشاً إيَّاهما بين راحتَيه، ومنحنياً على وجهه، في الظِّلّ!

بحقِّكَ تكلَّم! بحقِّكَ تكلَّم! ألست ترى أنَّك تعصر قلبي؟

ليوناردو

بلى، سأتكلَّم، سأبوحُ لكَ.... لكن لا تحدِّق فيَّ هكذا عن قُرب، لا تُمسك يديَّ.... اجلس هناك.... انتظرْ.... انتظرْ حتَّى يكون ثمَّة ظلٌّ أكبر.... سأفضي إليك.... أنا مُحتاجٌ أن أفضي إليك.... إليك أنتَ.... أنتَ وحدكَ.... بأمرٍ رهيب!

اَلسَّاندرو

يجلسُ، بعيداً بعض الشَّيء، متحدِّثاً بصوتٍ خافتٍ، والجزعُ يجتاحُه.

ها أنا، جالسٌ هنا.... أنتظرُ.... أنتظرُ.... أنتَ في الظِّلِّ.... لستُ أرى منكَ إلا كما يُرَى الخيال.... تكلَّم!

ليوناردو

كيفَ أبوحُ بهذا!

لحظة صمت. الاثنان يجلسان قبالةَ بعضهما، في الظِّلِّ المُختَضِّ بانتلاق الذَّهبيَّات. وإذ يستأنفُ **ليوناردو** الحديث، فإنَّ صوتَه يبدو مبحوحاً ومتهدِّجاً. **اَلسَّاندرو** يُصغي بسكونٍ تامٍّ، كما لو أنَّ كينونته برمَّتها مُنقبضةٌ من الكَرب.

آه، أنتَ تعرفُها، أنتَ تعرفُها.... تعرفُ كم هي عذبة، كم هي رقيقة، وأيُّ مخلوقٍ طُهْرٍ هيَ.... شقيقتي.... أنتَ تعرف، أنتَ تعرف ما الذي كانت تعنيه لي في سنوات العزلةِ والعمل.... كانت هي عطرَ حياتي، السَّكينةَ والطَّراوة، المَشورةَ والعزاء، والحلم، والقصيدة، وكلَّ شيء.... أنتَ تعرف، أنتَ تعرف....

لحظة صمت.

أيَّ غِبطاتٍ أُخَر عرفَها شبابي؟ أيُّ امرأةٍ أخرى ظهرتْ في دربي؟ لا أحد. كان دمي يجري باطمئنانٍ وسكينة.... لقد عشتُ كما لو كنت معلَّقاً في الفضاء: لم أرتعش سوى أمامَ جَمال التَّماثيل التي أخرجتُها.... حياتُنا لطالما كانت نقيَّةً مثل الصَّلاة، في تلك العُزلة.... آه، العُزلة!... يا لتلكَ الأوقات، يا لتلكَ الأوقات التي عشناها بجوار بعض، أخاً وأختاً، وحدَنا، وحدَنا، وحدَنا، سعيدَين، مثلَ طفلَين.... لقد أكلتُ الفاكهةَ المدروزةَ بآثارِ أسنانِها، وشربتُ الماء من تجويفةِ كفَّيها.

لحظة صمت.

وحدنا، دائماً وحدنا، في البيوت الطَّافحة بالضَّوء!... الآن، تخيَّل أحدَهم يرتشفُ، على حين غفلةٍ، سُمَّاً، مشروباً سِحريّاً، شيئاً غيرَ نقيٍّ يسمِّمُ دمَه، ويُفسدُ فِكرَه: هكذا، فجأةً، بَينا روحُه مُنغطَّةٌ في سلامِها.... تخيَّل هذي الملمَّةَ الرَّهيبة!... أن تكونَ في ساعةٍ اعتياديَّةٍ من ساعاتِ وجودِك، في ساعةٍ شبيهةٍ بساعاتٍ أخَر؛ مِن نهارٍ جحيميٍّ قائظ، ألِقٍ ورائق مثلَ الألماس: حيث كلُّ شيءٍ جليٌّ، وكلُّ شيءٍ صافٍ، عن قُربٍ، وعن بُعد. أن تعودَ من عملِك: نباهتُكَ تكونُ تخفَّفتْ، ولستَ تكتشفُ شيئاً فريداً في نفسِك، ولا في الأشياء: أنفاسُكَ هادئة، روحُكَ مُنغطَّةٌ في السَّكينة، وحياتك تسيلُ مثلما في الأمسِ داخلَ مجراك، من الماضي نحوَ الآتي.... تعودُ إلى بيتِك الطَّافحِ بالضَّوء والصَّمت مثلما في الأمس؛ تفتحُ باباً؛ تدخلُ حُجرةً.... وتراها، هيَ، هيَ، رفيقتَكَ البتول، تراها غافيةً أمامَ النَّار، مصبوغةً بكاملِها بحُمرة الأجيج، بقدميها الصَّغيرتين العاريتين المعروضَتين للَّهَب. تنظرُ إليها وتبتسم. وفيما تبتسم، خاطرٌ فوريٌّ ولا إراديٌّ يجتازُ روحَك: خاطرٌ مُبهمٌ تعتري كيانَكَ، تلقاءَه، رجفةُ

نُفور.... لكن عبثاً! عبثاً! الخاطرُ يُلمحُ، ينمو عنوةً، يصيرُ وحشاً، يتسلَّطُ ويُهيمنُ.... آه، أيُمكنُ هذا؟... الخاطرُ- الوحشُ يستولي عليك، يحتل دمَكَ، يغزو جميعَ حواسِّك. وأنتَ لستَ سوى فريسته، فريسته البائسة والمرتعدة؛ وكلُّ روحِك، روحِك النَّقيَّة، تصيرُ موبوءةً آنذاك؛ ويصيرُ كلُّ شيءٍ فيكَ وصمةً ودَنَساً.... آه، أيُعقَلُ هذا؟

يثبُ على قدميه، شاعراً **بألِسّاندرو** يرتعدُ في الظِّلِّ. جسدُه برمَّته مأخوذٌ بقشعريرةٍ تشبهُ بُرَدَاء الحُمَّى. يخطو بضع خطواتٍ صوبَ الشُّرفة؛ ثمَّ يعودُ ليجلس. عينا **ألِسّاندرو** مفتوحتان من الدَّهشة ومركَّزتان عليه.

الآن، تخيَّل أنتَ حياتي هنا، في هذا البيت، صُحبتَها وصُحبةَ الوحش. ههنا، في البيت الطَّافح بالضَّوء أو الطَّافح بالظُّلمات، أنا وحدي معها وحدها!... إنَّه صراعٌ يائسٌ وخفيٌّ، مستمرٌّ من دون هدنة، من دون مَنجى، في الليل والنَّهار، في كلِّ ساعةٍ وكلِّ لحظة، يزدادُ وحشيَّةً كلَّما ازدادَ عطفُ ذلك المخلوق المُرهف على ألمي.... ولا شيء يُجدي: لا العمَلُ العنيفُ المندفِع، ولا التَّعبُ البهيميُّ، لا الذُّهول الذي كان يمنحُه لي الشَّمسُ والغبار، ولا الحماسُ الذي كانت تهبُه لي الأثريَّاتُ المكتشفة كلَّ يومٍ في الأرضِ التي أنبشُ: لا شيء، لا شيء كان ينفعُ لقهرِ الحمَّى الرَّهيبة، أو لتسكيتِ هذا الخَبَل الفاجر بضعَ هنيهاتٍ فحسب. كنتُ أغلقُ عينيَّ حين أراها مُقبلةً من بعيد؛ وكان جفنيَّ على عينيَّ كمثلِ النَّار على النَّار. وكنتُ أفكِّر، فيما الوجيبُ يُصمُّ أذُنيَّ، أفكِّر بغُصَّةٍ كنتُ

أحسبُها، في كلِّ مرَّةٍ، آخرَ حشرجاتِ حياتي: "آه، ليتَ أستطيعُ، إذ أفتح عينيَّ، أن أراها كما كنتُ أراها في تلك الأزمان، تلكَ الأخت القديسة!" وكانت إرادتي ترجُّ روحي رجّاً، كيما تحرِّرها من العذاب، بذاتِ النُّفور العنيف والفزع الطائش الذي لرجلٍ يرجُّ ثوباً اختبأ فيه حيوانٌ زاحف. بلا طائل، دوماً بلا طائل! آه- هيَ، أقبلتْ نحوي بخطوٍ كان هو يقيناً خطوَها المألوف، لكنَّه بدا لي مختلفاً وشوَّشَني مثلما تفعلُ لغةٌ غامضة. وكانت، كلَّما رأتني أكثر قلقاً وكرباً، تصيرُ أكثرَ رقَّةً وعذوبة. وإذ كانت يداها الوديعتان تلمساني، كانت جميع عظامي ترتعدُ وتتثلَّج، وكان قلبي ينقبض، وجبيني ينضحُ بالعَرَق، وأصبحت جذورُ شَعري حيَّةَ الشُّعور كما يحدثُ ساعةَ الموت.... آه، بل أسوأ بكثيرٍ من الموت كانَت ريبتي من أنَّها ربَّما خمَّنَتِ الحقيقة، الحقيقة المُفزعة!

لحظة صمت.

الليل! الليل! إن يكن الضَّوء باعثاً على الخوف هكذا، فما بالُك بالعتمة؟ العتمةِ الفاترةِ الأنسام، العتمةِ التي تبعثُ الأوهامَ والهذيان.... لقد، لقد كانت تنام في الحُجرة المُلاصقة لحُجرتي. كلَّ مساء، عند العتبة، كانت تقدِّم لي وجنتيها لأقبِّلهما، قبل أن تمضي؛ كانت أحياناً تحدِّثني من سريرها، عبر الحائط.... وأنا، متنصِّتاً، كنتُ أسمع أنفاسَها المجلوَّة بالنُّعاس، من تخوم سُهادي المُلتاع. أمَّا النَّوم، فهيهات! كنت أشعر بالأشفار تخدشُ عينيَّ؛ كان الحاجبان كمثل مِنخاسَين مؤلمَين.... فيما السَّاعات الثَّقيلةُ تمضي واحدةٌ إثرَ أخرى؛ والفجر يجيء، ومع الفجرِ يُنوَّمُ التَّعب الذي لا يُطاق، ومع التَّنويم تأتي الأحلام.... أوه، تلك الأحلام،

تلك الأحلام الشّائنة التي لا تستطيعُ النَّفْسُ صدَّها! لَخَيرٌ منها الأرق، لَخيرٌ منها المُقاساة على وسادةٍ كما لو أنَّها من العوسج، لَخيرٌ منها الدُّخول في النَّزع الأخير.... أتعي هذا؟ أتعي هذا؟ عندما يسقطُ النُّعاسُ أخيراً على عذابِك مثل قوَّةٍ فجائيَّةٍ ساحقة، عندما يتبلَّدُ لحمُك البائسُ ويتثاقلُ مثل قطعةٍ من رصاص، عندما تطلب كينونتُك بأكملها أن تموت، أن تموت قليلاً – أتعي هذا؟- آهٍ ما أشدَّ قسوة هذا الصِّراع اليائس ضدَّ حاجةِ الطَّبيعة، ويا لِهول الرُّعب من أن يجعلك النَّومُ الفريسةَ الخاملة لذاك الوحش المقزِّز.... كنتُ أصحو ذاهلاً كما بعدَ فِعل الخطيئة، جسدي برمَّته متشنِّجٌ من الخوف، وغير عارفٍ إن كنتُ أحلمُ أو أنِّي حقَّاً ملطَّخٌ بالجريمة، أكثرَ إجهاداً من ذي قبل، أكثرَ بؤساً من ذي قبل، بكراهيةٍ كُبرى للضَّوء- أنا المُرتاعُ أصلاً بالعتمة!-، وأكونُ، غريزيَّاً آنذاك، ملتُ برأسي وناظريَّ نحو الأرض مثل الحيوان....

السَّاندرو، بصوتٍ مخنوقٍ لا يُشبه صوتَه.

اصمت! اصمت!

ينهضُ مرتعشاً، فاقدَ السَّيطرة على آلامه؛ يمضي إلى الشُّرفة، يتنشَّق الهواء، ويرفع وجهه نحو السَّماء المرصَّعة بالنُّجوم.

ليوناردو

آه، لقد خنقتُكَ.... انظرْ، انظرْ إلى النُّجوم! تنفَّس، أنتَ الذي في مقدورك....

على مهلٍ، يمشي نحوَه، يضع يدَه المرتعشة على رأسه.

الآن اصمت! اصمت! هذا يكفي....

يخطو بضع خطواتٍ في الظِّلِّ مرتجفاً؛ يذهب نحو الباب، يفتحه، ينظرُ في الفراغ، ثمَّ يوصده ثانيةً؛ يعودُ إلى **ليوناردو** الذي يُخفي وجهه براحتيه وهو منحنٍ، ويلمسُ رأسه. ينكفئُ ثانيةً نحوَ الشُّرفة. **ليوناردو** ينهضُ ويقتربُ منه. كلاهما الآن صامتٌ، وأحدهما في جوار الآخَر، ينظران إلى الأرض المزروعة بالمحارق الملتهبة في المساءِ النَّقيِّ والرَّائق على نحوٍ غير مألوف.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثّالث

نفسُ الحُجرة التي دارت فيها أحداثُ الفصل الأوَّل. شُرفةُ الإيـوان مُـشرَّعةٌ علـى الفـضاء: في الأعلـى، بـين العمـودَين، تظهـر الـسَّماء الليليَّة، مُختلجةً بالنُّجوم. ثمَّة شمعدانٌ يتوهَّجُ على الطَّاولة المزدحمة. الصَّمتُ عميق.

المشهد الأوّل

آنّا جالسةٌ على الدَّرجات؛ والنَّسَمُ الليليُّ يمرُّ على وجهها الأبيض، المرفوعِ نحو النُّجوم غير المرئيَّةِ لها. فيما تتحدَّث، يلوحُ في صوتِها ألَقٌ فريدٌ، لا يمكن تعريفُه، شبيهٌ بأثرِ نشوةٍ خفيفة. **المربِّية** جاثيةٌ على الأرضِ أمامَها، حزينةٌ وخاضعة.

آنّا، مادَّةً يديها نحوَ الليل.

تجيءُ نفحةٌ ما، بين وهلةٍ وأخرى.... نسائم قليلة ترتفع؛ أليس كذلك، أيَّتها المربِّية؟ ألا تشمِّين رائحة الآس[1]؟

المُربِّية

إنَّها نسائم الأرض ترتفع.

آنّا

الأرضُ تتنفَّس. آنفاً، حين نزلتُ إلى النَّبع مع بيانكا ماريًّا، لم يكن ثمَّة نسمةٌ واحدة: ولا نسمة! محضُ سكونٍ مُطلَق، لا يبدِّله شيء. لم ننطق بكلمةٍ واحدةٍ أنا وهي، كي لا نشوِّشَ تلك السَّكينة. وحده النَّبع كان يبكي ويضحك.... هل أصغيتِ مرَّةً إلى صوتِ ذلك النَّبع أيَّتها المُربِّية؟

---

(1) من أسماء الرَّيحان، المترجم.

المُربِّية

الماءُ يقولُ دائماً ذاتَ الشَّيء.

آنّا

غيرُ صحيح، غيرُ صحيح. كنَّا جالستين هناك لا ننطق بكلمة، أنا وبيانكا ماريًا؛ الماء وحده كان ينطق، ينطقُ بأشياء لامتناهية راحت تلجُ فيَّ كمثل إغواءات.... كمثل إغواءات.... كان يُغويني بِفعل ما هو محتومٌ أيَّتها المربِّية: ذلك الماء الطُّهرُ الطَّالع من القعر....

المُربِّية، مُضطربة الخاطر.

ما الذي تريدين فِعله؟ ما الذي تريدين فِعله؟

آنّا

أريدُ الرَّحيل، الرَّحيل بعيداً....

المُربِّية

تريدين الرَّحيل! إلى أين؟

آنّا، بمزاجٍ مهشَّمٍ ومُنفعِل.

سوف تعلمين، سوف تعلمين.... لا تضطربي؛ إبقي هادئة، أيَّتها المربِّية المسكينة. سوف أمضي عبر تلك الدَّرب، دون أن تقتاديني. لن أحتاج بعد ذلك إلى الاتِّكاء عليكِ، أيَّتها المربِّية المسكينة. داخل عينيَّ سوف يتشكَّل الضَّوء.... ماذا قلتِ أنتِ عن عينيَّ، في ذلك اليوم؟ "لمَ الله تركَ عينيكِ جميلتين هكذا إنْ كان لا يريد أن ينيرَهما

من جديد؟" أترين، أيَّتها المُربِّية؟ إنِّي أتـذكَّرُ كلماتِـك، والآن أعـرف حقَّ المعرفة أنَّ عينيَّ جميلتان.

المُربِّية

يا لِكلماتِك، هذا المساء! ثمَّة شيءٌ ما، ثمَّـة شـيءٌ مـا مـستترٌ في أعماق كلماتِك.... غير أنِّي لست سوى عجوزٍ مسكينة.

آنّا

مأخوذةً بتأثُّرٍ عاطفيٍّ مُباغتٍ، تضع يـديها علـى كتفَي المربِّية.

أنتِ عجوزي المسكينة والغاليـة؛ أنـتِ أوَّلُ حنـانٍ وآخـرُ حنـانٍ، أيَّتها المربِّية. لطالما شعرتُ بقطراتٍ من حليبِك في دماء قلـبي، أيَّتـها المربِّية. آه، صدرُكِ جفَّ، لكنَّ قلبَكِ هو في كلِّ يـومٍ أكـبر مـن يـوم. أنتِ من كنتِ تقودينني مـن يـدي عنـدما لم تكـن قـدماي الـصَّغيرتان قادرتَين على الخَطو بعد، واليوم أنتِ بالصَّبرِ المُخلص نفسِه تقـودينني في الظُّلمة المَهـول. أنـتِ قدِّيـسةٌ، أيَّتـها المربِّيـة. ثمَّـة فـردوسٌ مُعَـدٌّ لأجلِكِ، في قلبي....

المُربِّية

أنتِ تدفعينني إلى البكاء الآن....

آنّا، مُلقيةً ذراعيها حول عُنقِ المُربِّية.

آه، سامحيني، سامحيني! لقد أبكيتُك.

المُربِّية

باستغراب، تحرِّر نفسَها من العِناق، محدِّقةً في وجهها.

لماذا، لماذا تتحدَّثين هكذا؟ لماذا تضمِّينني هكذا؟

آنّا، في سعيٍ لمواراة قلقِها.

أوه، لا، لا.... لا لشيء، لا لشيء.... قلتُ ذلك لأنّي عاجزةٌ الآن عن منحِك أصغرَ غِبطةٍ، أيَّتها المربِّية المسكينة، ولا غِبطة....

المُربِّية

أنتِ لا تُخفين عنِّي شيئاً؛ أليس كذلك؟ أنتِ لا تريدين خِداعَ مربِّيتك المسكينة، أليس كذلك؟، أنتِ لا تريدين خداعَها....

آنّا

لا، لا، غُفرانكِ. أنا لا أعرف بما أتفوَّه، هذا المساء؛ لا أعرف بما أشعر.... محضُ طيشٍ غريب. في البداية كنت أشعرُ بي خفيفةً كما لو أنّي على وشك أن أتسامى؛ كنتُ أشعر بشيءٍ من الحُبور: أتكلَّم، وأتكلَّم.... ثمَّ فجأةً دَهَمَتني الكآبةُ من جديد، وجعلتُكِ تتألَّمين.... والآن أنا أفضل حالاً، أشعر أنّي بخير، بعد أن عانقتُكِ، أيَّتها المربِّية. لَكَم أودُّ لو تضمِّينني على ركبتيك، أن تقصّي عليَّ تلك الأحدوثات الصَّغيرة والبعيدة التي في ذاكرتِك، عنِّي، عنِّي عندما كانت أمِّي على قيد الحياة.... هل تتذكَّرين؟ هل تتذكَّرين؟

لحظة صمت.

آه، لماذا لم أحظَ بابنٍ: الابن الذي طالما تمنَّاه: لماذا؟ لكنتُ نجوتُ من هذا، لكنتُ نجوت! ما من أمٍّ كانت أحبَّتْ مخلوقَ دمِها ولحمِها مثلما كنتُ لأحبُّه أنا. لَكان كلُّ شيءٍ آخَر بدا لي لا شيء. لَكنتُ صَبَبتُ، دونما انقطاعٍ، أعذبَ ما في روحي داخلَ روحِه. لَكُنتُ، بلا انقطاعٍ، تعقَّبتُ كينونتَه الإلهيَّة الصَّغيرة لألتقف في كلِّ لحظةٍ أثَرَ شَبَهٍ ما، شَبَهٍ فريد؛ ولَكانت طراوتُه أعزُّ عليَّ من الضَّوء.... ولكن، نفْسُ القاضي الذي حكمَ عليَّ بأن أكون عمياءَ، حكَمَ عليَّ بأن أكون عاقراً: تكفيراً عن أيِّ ذنبٍ، أيَّتها المربِّية؟ أخبريني! أيُّ خطيئةٍ عظيمةٍ اقتُرِفَتْ....

لحظة صمت. عينا المُربِّية مغرورقتان بالدُّموع.

يا لِلعَجَلة التي تركَتني فيها، أمِّي! كنتُ أنا حُظوتَها، كنتُ حُظوتَها؛ ومعبودتَها كنتُ؛ ومع ذلك لم تكن سعيدة.... أنت تعرفين هذا، أليس كذلك؟ أنت تعرفين جيِّداً. أنتِ تعرفين سببَ موتِها. أنتِ لم تقبلي يوماً أن تُخبريني، أيَّتها المربِّية، لمَ ماتت.... وكيفَ ماتت.

المُربِّية، مُضطربةً ومتردِّدة.

كانت حُمَّى، حُمَّى عظيمة مُباغتة أخذتْها من بيننا ذاتَ ليلةٍ. ألم تعرفي هذا؟

آنَا

آه لا، لا، لم تكن الحُمَّى. لماذا لم ترغبي يوماً في إخباري الحقيقة؟

المُربِّية

أليست تلك هي الحقيقة؟

آنّا

لا، ليست تلك هي، ليست تلك هي. ذلك المساء، مكثتْ أمِّي على وسادَتي؛ وفيما كنتُ غافية، شعرتُ بقُبلاتِها على وجهي وبشيءٍ ما دافئٍ كأنَّه دموع.... آه كانَت سطوةُ النُّعاس لا توصَف، حيث أنَّها انتصرتْ على القَلَقِ المشوَّش لقلبي الصَّغير؛ وخُيِّلَ إليَّ في آخِرِ وميضِ الوعي، أنَّها تُمطرُ وجهي، وعُنُقي، ويديَّ ببتلاتِ الورود التي فَرَطتُها نهارَ ذلك اليوم في حوضِ الحديقة. هذه آخرُ رؤيا أحتفظ بها عن أمِّي.... بعد ذلك أتيتِ أنتِ لتوقظيني وسألتِني إن كنتُ رأيتُها ومتى وفي أيِّ حال تركَتني؛ وكنتِ مبهورةَ الأنفاس. مع ذلك، عدتُ إلى النَّوم، وكنتُ أسمعُ أصواتَ دَوسٍ تصعدُ من الحديقة، كأنَّما هناك من يبحث عن شيء. وفي الصَّباح، بعد الفجرِ بقليل، أتيتِ ثانيةً لتوقظيني، ولَفَفتِني بدثارٍ وحملتِني على ذراعيكِ المرتعدتَين؛ حملتِني إلى البيت الآخَر، حيث كنتِ تتحدَّثين بصوتٍ خفيض، حيثُ كان الجميع يتحدَّث بصوتٍ خفيض، وهُم شاحبون.... ولم أرَها قطُّ بعد ذلك.... وعندما كنَّا نعودُ إلى حديقتنا، كنتِ تُقصينني دوماً عن الحَوض؛ وفيما أنتِ هناك، كانت شفتاكِ تهتزَّان باستمرارٍ كأنَّهما تصلِّيان....

لحظة صمت.

أخبريني الحقيقة! أخبريني الحقيقة! لماذا أرادت الموت؟

المُربِّية، مُرتبكة.

لا، لا.... أنتِ تتوهَّمين، أنتِ تتوهَّمين....

آنّا

لن أعرف الحقيقةَ أبداً؟

المُربِّية

أنتِ تتوهَّمين.... آه أنتِ دائماً هكذا تَسْعَين إلى تجديد آلامي!

آنّا، مُلاطِفَةً إيَّاها.

غُفرانكِ، غُفرانكِ. ها قد بعثتُ فيكِ آلاماً أُخَر!

لحظة صمت.

هل تشُمِّين رائحة الآس؟ أتشعرين كم هي قويَّة؟

تنهضُ، تلتفتُ نحوَ شُرفةِ الإيوان المفتوحة، وتتنشَّقُ العبقَ باسطةً يديها.

الأنسامُ تتصاعدُ: لكأنَّها ترنُّ بين يديَّ كجسمٍ من البلَّور. أهو مفتوحٌ، هناكَ، البابُ المُفضي إلى حُجراتي؟

المُربِّية

إنَّه مفتوح.

آنّا

أجميعُ النَّوافذ مفتوحة؟

المُربِّية

جميعُها.

آنا

النَّسَمُ يمرُّ مثل نهرٍ عَبِق. تُرى أين هي بيانكا ماريًّا؟

المُربِّية

لعلَّها في حُجرةٍ من حُجُراتِها. أتودِّين أن أناديها؟

آنا

لا، لا.... دعيها تستريح، تلك البائسة! عندَ النَّبع، كانَ عَبَقُ الآسِ نافِذاً حدَّ أنَّها كادت تدخل في غيبوبة. شعرتُ بها ترتجفُ بينما كنَّا صاعدتَين. أكثر من مرَّةٍ كنتُ أنا من يسندُها.... انظُري كم أنا واثقةٌ من نفسي، أيَّتها المربِّية! كنتُ أقودُها أنا، بدلَ أنْ تقودني هيَ. أعتقدُ أنِّي قادرةٌ على النُّزول بمفردي والصُّعود بمفردي....

المُربِّية

لكن لماذا تتكلَّمين كثيراً عن ذلك النَّبع؟

آنا

جميعُنا مشدودون إليه كما لو إلى منهلٍ للحياة. أليس هو الشَّيء الوحيد الحيُّ في هذا المكان، حيث كلُّ شيءٍ ميتٌ ومُحترق؟ هو وحده الذي يُطفئ عطشنا؛ وكلُّ ما فينا مِن عَطَشٍ يتطلَّعُ بِشَرَهٍ نحوَ غضارَتِه. لو لم يكن هذا النَّبع موجوداً، لما كانَ أحدٌ قادراً على العيش هنا؛ لكانَ الجميع ماتوا من القَيظ.

المُربِّية

لكن لماذا جئنا إلى هذه المكان الملعون؟ ها هوَ الصَّيف قد انفجرَ فجأةً، مثلَ الجحيم. حريٌّ بنا الهُروب. متى سنرحل؟

آنّا

قريباً، قريباً، أيَّتها المربِّية.

المُربِّية

إنَّه حقّاً مكانٌ مصبوبةٌ عليه لعنةُ الله. سُوطُ القصاص السَّماويِّ مرفوعٌ على هذه الأرض. كلَّ يومٍ تصعدُ المواكب إلى مُصلَّى النَّبي إيليا. البلدةُ، هذا المساء، تفيضُ بمشاعلِ النَّار. لكن ما مِن قطرةِ مطرٍ واحدةٍ سقطتْ. ليتك ترين النَّهر! صخورُ الضَّوَّان جافَّةٌ ومُبيضَّةٌ كعِظامِ الموتى.

آنّا

نهرُ إيناكوس! الذي عَبَرَهُ أَلِسَّاندرو في ذلك اليوم.... يومِ الذَّهبِ العظيم...

مُتحسِّسةً بيديها وقدميها، تجلس على آخرِ الدَّرجات.

أتحبِّين أن أقصَّ عليكِ أسطورةَ النَّهر، أيَّتها المربِّية؟ هي ذي. كان ثمَّة ملكٌ يُدعى إيناكوس، ملكُ النَّهر؛ وكانت لهذا المَلك ابنةٌ تُدعى إيو، فائقةُ الجَمال، فائقةُ الجَمال حدَّ أنَّ ملِكاً آخَر، الملكَ الأعظمَ، ملكَ العالم، أغرمَ بها وأرادها. لكنَّ الزَّوجة الغَيور حوَّلتِ العذراءَ إلى بقرةٍ بيضاء كالثَّلج وجعلتها في عُهدةِ راعٍ يُدعى آرغوس وكان له مِائة عَين. وكان هذا الرَّاعي المُخيف يرعى البقرة البيضاء على السَّفح، قربَ

البحر، في أرضِ ليرنا[1] المُعشبة المُخضرَّة؛ ولم تكن عيونُه المائة لتغفلَ لا في الليل ولا في النَّهار عن تتبُّع آثارِها. عندها أرادَ ملكُ العالَم أن يحرِّر العذراء، فأرسلَ بهرمز الأمير ليقتلَ الحارس المتوحِّش؛ فلمَّا وصلَ الأمير هِرمز إلى أرضِ ليرنا، أخذ ينفخُ في النَّاي أنغاماً بالغة العذوبة جعلت آرغوس يسقط في إغفاءةٍ عميقة؛ وفيما هو نائمٌ بَتَرَ هِرمز بسيفِه الرَّأسَ المُخيفةَ ذات المِائة عَين. لكن ما كان مِن الزَّوجة الغَيور إلَّا أن أرسلتْ ذبابةً كبيرةً انغرزتْ في ظهرِ البقرة كمثلِ إبرةٍ مِن نار وجنَّنَتْها من الألم. أخذتْ إيو المُهتاجة من ذُبابةِ الظَّهر تركضُ عبرَ الرِّمال الشَّاطئيَّة؛ ركضتْ، وركضتْ، ركضت عبرَ الأرضِ برمَّتِها، قطعتِ الأنهار، اجتازتِ المضائق البحريَّة، عبرتِ الجِبال، والذُّبابةُ تنهشُ في ظَهرِها، فيما الألمُ والخوفُ يغذِّيان سُعارَها الجنونيَّ، والجوعُ والعطشُ يُتلفانِ قواها، والإرهاقُ يقصم ظهرَها، لاهثةً، والزَّبدُ يندفقُ من فمِها، وهي تخورُ دون توقُّف، دون أيِّ توقُّف.... وفي آخِر المطاف، في أرضٍ بعيدةٍ، وراءَ البحار، تجلَّى لها الملكُ الذي أحبَّها، وبحركةٍ واحدة، بالكادِ ماسَّاً إيَّاها مسَّاً خفيفاً، خلَّصها من اللعنة وأعاد إليها هيئة البشر. ووضعتْ له غُلاماً أسودَ. ومِن نسلِ هذا الغلام الأسود، بعدَ خمسة أجيال، انحدرَتِ الدَّانايديَّات[2]، الدَّانايديَّاتُ الخمسون...

---

(1) سبق أن أشرنا إليها، المترجم.

(2) هنَّ في الأسطورة الإغريقيَّة بناتُ داناو أخي إيجيبتُو الذي كان له خمسون ابناً، وقد رفضن الزَّواج بأبناء عمِّهنَّ وهربن مع أبيهنَّ إلى آرغو، لكنَّ الفِتية لحقوا بهنَّ وأجبروهنَّ على الزَّواج، فأمرَ داناو بناتَه بأن تقتلَ كلُّ واحدةٍ منهنَّ بعلَها، ففعلن جميعاً إلَّا إيبرْمنسترا التي تزوَّجت بليثيوس، وقد زوَّجهنَّ داناو من جديد بأمراء وشخصيَّات من مقاطعة آرغو. غير أنَّ ليثيوس سرعان ما انتقمَ لأخوتِه قاتلاً جميع بنات داناو إلَّا زوجته إيبرْمنسترا، المترجم.

تميلُ جهةَ المُربِّيةِ التي حنتْ رأسَها على صدرِها، وذهبت في سُبات.

أنتِ نائمةٌ، أيَّتها المربِّية؟

المُربِّية، جافلةً.

لا، لا.... إنَّني أصغي.

آنّا

أنتِ ناعسةٌ، يا مربِّيتي المسكينة! في الماضي كنتِ أنتِ من يقصُّ عليَّ الخُرافات لكي أغفو.... هيَّا اذهبي، اذهبي لتستريحي، أيَّتها المربِّية. سوف أناديكِ ثانيةً. إنِّي أنتظرُ ألِسَّاندرو.

المُربِّية

لا، لستُ ناعسةً.... لكنَّ صوتَكِ بالغُ العذوبة....

آنّا

هل ألِسَّاندرو في حُجرتِه؟

المُربِّية

إنَّه هناك.

آنّا

لقد سمعتُ البابَ يوصَدُ عليه.... سمعتُ المفتاحَ يُدار....

المُربِّية

أتريدين أن أناديه لكِ؟

آنّا

لا، لا.... ربَّما يرغبُ في البقاء وحيداً؛ ربَّما يعمل....

مُرهِفةً السَّمع.

أحدُهم يصعدُ الدَّرج.

المُربِّية تنهضُ لتتوجَّه نحو الباب الأوَّل على اليمين.

المشهد الثاني

يدخل **ليوناردو** متردِّداً. يبدو أنَّ العُقدةَ السَّوداء قد تراخت عنه قليلاً. هو مع ذلك مقهورٌ ومتألِّم، غيرَ أنَّ الوَرَعَ الذي على سيماه يمنحهُ هيئةَ الخاضع؛ ذلك أنَّه بكى.

ليوناردو، ماشياً نحو العمياء بشيءٍ من التَّذلُّل.

ها أنتذِه، آنَا.... وحدكِ....

آنَا، ناهضةً ومادَّةً ذراعيها نحوَه.

كنت أنتظرُ أن يجيء أحد. أَلِسَّاندرو ما يزالُ في حُجرتِه، وبيانكا ماريَّا.... أحسبُها تستريح.... لقد كادت تدخلُ في غيبوبة، ونحن هناك، عند النَّبع، دائخةً من عبقِ الآس المفرطِ القوَّة....

ثمَّ موجِّهةً كلمتها إلى المربِّية.

اذهبي أيَّتها المربِّية. سوف أستدعيكِ لاحقاً.

المُربِّية تغادر من الباب الثَّاني على اليسار.

ليوناردو

آه، كادت تدخلُ في غيبوبة....

آنّا

دُوارٌ فحسب.... لقد غطَّت يديها في المـاء، كيمـا تُـنعشَ قواهـا. وقد اقتدتُها أنا.... تخيَّل أنّني أعرفُ الدَّرب! أعتقـدُ أنّـي قـادرةٌ علـى النُّزول بمفردي والصُّعود بمفردي....

ليوناردو

أنتِ لا يمكن أبداً أن تضلِّي....

آنّا

أبداً، على تلك الدَّرب.

ليوناردو

أتودِّين الجلوس يا آنّا؟

آنّا

لا. أودُّ الصُّعودَ إلى الإيوان. لا بدَّ وأنَّها ليلةٌ باهرة.

ليونـاردو يقتادُهـا إلى الأعلـى عـبرَ الـدَّرجات. كلاهمـا يـتمهَّلان عنـد الفـضاء المحـصور بالعمودين. آنّا تستند على عمودٍ منـهما، بوجـهٍ مرفوعٍ نحوَ السَّماء.

ليوناردو

إنَّها باهرةٌ بحقٍّ. إنَّها صافيةٌ لدرجةِ أنَّ جميعَ أحجـار السُّور مرئيَّـةٌ في هذه المدينة الميتة.

آنّا

بالمدينةِ الميتةِ سمَّيتَ مدينةَ الذَّهب! كنتُ أظنُّها لكَ نبعَ حيواتٍ أسطوريَّة. كنتُ أظنُّها أرضَ رؤىً أزليَّة لم يَرَها إلَّاك.

ليوناردو

آه، إنَّها ميتة، ميتة تماماً.... لقد أعطتني كلَّ الأعطياتِ المُمكنة. ليست الآنَ شيئاً سوى جبَّانةٍ مدنَّسة. القبور الخمسة ليست الآنَ شيئاً سوى خمسة أفواهٍ خاويةٍ لا شكلَ لها ولا معنى.

آنّا

سوف تجوعُ من جديد....

لحظة صمت.

أتتأمَّلُ النُّجوم؟

ليوناردو

لم تكن قطُّ برَّاقةً أكثر ممَّا هي الليلة؛ إنَّ لها وميضاً خاطفاً وقويّاً يجعلها تبدو قريبةَ المنال. **الدُّبُّ الأكبر** يثيرُ الرَّهبة: إنَّه يتوهَّجُ كما لو أنَّه دخلَ الغلافَ الجويَّ للأرض. **الدَّرب الحليبيُّ** يختلجُ في الرِّيح مثل وشاحٍ مديد.

آنّا

آه، أخيراً ها أنتَ تقرُّ بجمال السَّماء! كان ألِسَّاندرو يقول إنَّ افتتانَكَ بالقبور أنساكَ جمالَ السَّماء.

ليوناردو

من أجلِ النَّظر إلى النُّجوم، يلزمُ عينان نقيَّتان.

آنّا

ألم تُعطِكَ بيانكا ماريًّا، من أجلِ عينيك الموجوعتَين، الدَّواء الذي وعدَتْ؟

ليوناردو، بصوتٍ متغيِّر النَّبرة.

أجل؛ حقيقةً أنَّ عينيَّ قد بدأتا تبرآن....

آنّا

بعذوبةٍ، مُحاولةً التَّزلُّف إليه.

أأنتَ مُخاصمٌ بيانكا ماريًّا في أمرٍ ما، يا ليوناردو....

ليوناردو

أنا؟

آنّا

أكثر من مرَّةٍ، يا ليوناردو، أكثر من مرَّةٍ شعرتُ باضطرابِك حين تكون هي حاضرةً، أو حين يَذكر اسمَها أحدٌ....

ليوناردو، مرتعشاً.

أنتِ شعرتِ بهذا....

آنّا

أليس لديكَ ثقةٌ بي؟ ألست تعتقدُ أنَّ روحي خُلِقتْ لأجلِ الحقيقة؟ ألست تعتقدُ أنّي بعضٌ ممَّا وراءَ الحياة؟ من ذلك الماوراء البهيِّ والوحشيِّ الذي يُنيرُ الأيّام؟

ليوناردو

عن أيَّةِ حقيقةٍ تحدِّثينني يا آنّا؟ عن أيَّةِ حقيقة؟

آنّا

عن الحقيقة التي بتُّ أعرفها والتي لا أحد يستطيعُ لها حجباً ولا تحريفاً، لا حجباً ولا تحريفاً.

لحظة صمت. ذاهلاً ومبهوتاً يحدِّق ليوناردو فيها بتركيز، متّكئاً إلى العمود الآخَر.

أعرفُ أنَّك قلِقٌ ومُضطرِب، وأنَّكَ مُتْرَعٌ بالمخاوف والهموم.... أعرفُ ما الذي تُعانيه. لكن لستَ وحدكَ من يُعاني يا ليوناردو؛ نحنُ جميعُنا نُعاني؛ وكلُّ واحدٍ منَّا يسعى لحجبِ معاناتِه عن الآخَر؛ كلُّ واحدٍ منَّا يقترفُ إساءةً في حقِّ الآخَر وفي حقِّ نفسه، ذلك أنَّه يُحسُّ ثقتَهُ بالآخَر تتخلخل؛ وها نحنُ عُراةٌ من كلِّ جُرأة، مُرتابون ومُهانون، فيما الحقيقةُ جالسةٌ بيننا وهي تحدِّقُ فينا بالعينِ الصَّارمة...

ليوناردو

ما زلتُ لا أعي قولَكِ.

آنّا

أوه ليس عليكَ أن تأخذني مأخذَ الشَّفقة! إن كنتَ تعترفُ ببعضِ النُّبلِ لي، إن كنتَ ترى فيَّ الرَّفيقة الجديرةَ بالرَّجل الذي أحببتَه وأكبرتَه فوقَ الجميع، وإن كنتَ لا تظنُّني أهلاً للحبِّ الأخويِّ الذي تُظهرُه لي في كلِّ حين، فلا تأخذني مأخذَ الشَّفقة يا ليوناردو، لا تُغدق عليَّ تلكَ الرَّأفة التي تُغدقها على مخلوقٍ بائسٍ وضعيفٍ يرتعدُ من الألم! فنحنُ، ليس يفصلُ بيننا أكثر مِن نسيمِ هذا الليل. هذه هي السَّاعةُ الملائمةُ للبَوح، وقد فاضَ بنا الوَجد. أيُّ تسويفٍ سيكون ضعفاً، مَهلَكةً ربَّما....

ليوناردو، تائهاً، ومرتعشاً.

إنَّني مشوَّشٌ.... كلماتُكِ غيرُ متوقَّعة....

آنّا

منذ زمنٍ وأنا أشعرُ بكَ تتألَّم؛ منذ زمنٍ وأنا أشعرُ من قلبِ ظُلمتي.... كيفَ أعبِّر عن هذا.... كيفَ أعبِّر.... أشعرُ بما يُشبه عُقدةً من أشياء سرِّيَّة تُحاكُ في صمت: عُقدةً عديمة الخفقان، تضيقُ عليَّ مثلَ مِشنقة.... آه، لا أستطيعُ العيشَ هكذا؛ لا أستطيعُ العيشَ بعدَ الآن من دونِ نورِ الحقيقة، لا سيَّما وأنَّ نورَ عينيَّ قد انطفأ. إذن، فلنقلِ الحقيقة. إنَّني أنا، أنا وحدي، عِلَّةُ هذا البؤس. أنا التي ما عُدتُ أنتمي إلى هذه الحياة الجميلة والجارحة، حتَّى وإن كنتُ أشغلُ حيِّزاً فيها: أنا محضُ عائقٍ بلا روحٍ ترتطمُ به آمالٌ كثيرة وإراداتٌ كثيرة وتتهشَّم.... قل لي، ما ذنبُ تلكَ المخلوقةِ الأثيرة إن هي أذعنتْ، مرتعشةً وباكية، لحتميَّة القدر الذي يُحاصرها؟ لماذا تقتلعُ منها حناناتِها، إذا كان كلُّ ما هو إنسانيٌّ فيها يرضخُ لأكثرِ نوازعِ الوجودِ إنسانيَّةً؟ شيءٌ ما كان غافياً في

أعماقِها، يصحو الآنَ على حين غرَّة؛ وهي نفسُها مُرتعبةٌ مِن حَميَّةِ تلك الصَّحوة، هيَ نفسُها ترتعشُ تلقاءَها وتبكي.... آه، أنا أعلم، أنا أعلم كيفَ تتوهَّجُ رغبةُ الحياة في سائرِ دمِها! لقد أخذتُها بين يديَّ، شعرتُ بها تختلجُ بين يديَّ كمثل قُبَّرةٍ وحشيَّة، معطَّرةٍ ومُطرَّاةٍ بالهواء الفجريِّ الذي ارتشفتْهُ. كان وجهُها بأكملِه ينبضُ وسطَ شَعرِها مثلَ قلبٍ عنيف. لم أعرف قطُّ نبضاً بمثلِ تلك القوَّة. عجيبٌ هو زخمُ الحياةِ الذي فيها. هي نفسُها تخشاهُ كما تخشى شرَّاً غامضاً، أو جُنوناً يريدُ سحقَها. أحياناً تعتقدُ أنَّها مخنوقةٌ لا محالة تحت وطأةِ الحَصر واللوعة، لكنَّها سرعانَ ما تتغلَّب على ذلك وصوتٌ جديدٌ يولدُ على شفتيها ويلوحُ لكَ أنَّها تفوه بكلماتٍ لاإراديَّة.... آنفاً، ما بينَ الأرمدةِ والذَّهب، كانت تحدِّثني عن صقرٍ جريح. ارتجافُ ألفِ جناحٍ كانَ في صوتِها المولود.

لحظة صمت. **ليوناردو** يُصغي باهتمام، دون أن يأتي بأيَّةِ حركة، كأنَّه تحجَّرَ في مواجهةِ العمود.

ما هو، إذن، ذنبُها إنْ كانت تُحبُّ؟ ألا تظنُّ، يا ليوناردو، ألا تظنُّ أنَّ شبابَها لطالما قُدِّمَ أضحيةً، عندَ خاصرتِك؟ أتُراهُ هينٌ على حبِّكَ الأخويِّ أن يسألَها بعدُ التَّضحيةَ التَّامَّةَ بالحياة؟ لقد أحسَّت بأنَّها تُحتَضَرُ، في ذلك الصَّباح، وهي تقرأ رثاءَ *أنتيجونه*.... آه، لا يُعقَلُ أن يُفنَى كلُّ ذلك الزَّخم بالتَّضحية. إنَّها في حاجةٍ إلى الغِبطة؛ إنَّها معجونةٌ من أجلِ وَهْب ونَيلِ الغِبطة. وتريدُ أنتَ، تريدُ أنتَ يا ليوناردو منها أن تنكرَ حصَّتها الشَّرعيَّة من الغِبطة؟

لحظة صمت. يبدو كما لو أنَّ جرأتَها بدأت تخفُّ.

وهوَ....

صوتُها يخبو على شفتيها. ترقُّبُ **ليوناردو** يُفصِحُ عن التياعٍ مُميت.

.... كيف يُمكن له ألَّا يحبَّها؟ يقيناً، يجدُر به أن يرى فيها التَّجلِّي الحيَّ لأكثر أحلامِه طيشاً: النَّصرَ الأشهى الذي يتوِّجُ به حياتَه. ماذا أمثِّلُ أنا له الآن سوى رسنٍ ثقيلٍ، وربقةٍ لا تُطاق؟ أنت تعرفُ أيَّ نفورٍ عميقٍ لديهِ ضدَّ كلِّ ألَمٍ خامِلٍ، ضدَّ كلِّ عذابٍ عقيم، ضدَّ كلِّ تحريم، وضدَّ كلِّ حَظرٍ يعترضُ ارتقاء القُوى الأصيلة نحوَ المرتبةِ الأعلى. أنت تعرفُ بأيِّ احتراسٍ مُثابِرٍ ينقِّبُ فيما حولَه ويتشرَّبُ كلَّ شيءٍ من شأنه أن يُضاعفَ ويسرِّعَ القوَّةَ الفعَّالةَ لروحِه، كُرمى لصُنعةِ الجَمال التي عليه إنجازُها.... آه، ماذا أمثِّل أنا، ما الذي يساويه طيفٌ بائسٌ نِصفُ حيٍّ في مواجهةِ الكونِ اللامتناهي للشِّعر الذي يحملهُ في داخلِه كيما يُفشيهِ للبشر؟ ماذا يكون كَربي المُنعزِل أمامَ الألم المُطلَق الذي هو وحده القادر على تسكينه بوحيِ فنِّهِ الخالِص؟ إنَّني نِصفُ حيَّة، لي قَدَمٌ تدوسُ في الظِّلال: خطوةٌ واحدةٌ فحسب، خطوةٌ صغيرةٌ، وأغيب.... أوه، خطوةٌ واحدةٌ صغيرةٌ فحسب! أنا أعرفُ، أعرفُ كلَّ الأشياء التي تتكدَّسُ وتلتفُّ حولَ ما بقيَ من عمري، إنَّها: الرِّباط الشَّرعيُّ، العُرف، المَظنَّة، الشَّفقة، النَّدم.... إنِّي أذكرُ عموداً حجريّاً متآكلاً ومقطوعاً، متروكاً على رصيفِ مرفأٍ قديمٍ مهجور حيث كان هيكلُ سفينةٍ ما يزال ظاهراً على سطحِ المياه؛ أذكرُ ذلكَ الجِذعَ عديمَ الجدوى مُحاطاً بالأقلاسِ الباليةِ للسُّفن، وبفُضالاتِ الرُّسُوَّاتِ القديمة.... لم يكن ثمَّة شيءٌ أكثر كَرباً من هذا في الأنحاء. منظوراً من ذلك الموقع، كان البحرُ الطَّلقُ يتغاوى كمثلِ وعدٍ غراميٍّ، يفوقُ الوصف.

لحظة صمت. تحني رأسَها على صدرِها، مُستغرقةً بضعَ لحظات؛ ثمَّ تتحرَّكُ وتمدُّ يديها نحوَ ليوناردو الذي منعَهُ فَرطُ التَّأثُّر من الكلام.

إنْ كنتَ تخسرُ ما تُحبُّ، فاجهدْ أن تُخلِّصَ ما تستطيع. هاكَ ليوناردو، ضع يديكَ في يديَّ.

ليوناردو يخطو خطوةً نحوَها، مُرتعداً؛ ويمدُّ إليها يدَيه. هيَ ترتجفُ حالما تمسسهُما.

إنَّهما أكثر برودةً من يديَّ: كأنَّهما مقدودتان مِن جليد.

يهبطان الدَّرجات.

ليوناردو، بصوتٍ خابٍ ومحطَّم.

غُفرانكِ، آنَّا، إنْ كنتُ عاجزاً عن قولِ كلمةٍ واحدة... سوف أتحدَّثُ إليكِ، سوفَ أتحدَّثُ إليكِ غداً... عِديني أنَّكِ سوف تنتظرين، عِديني أنَّكِ سوف تُصغين... أمَّا الآن فأنا لا أعرف، لا أستطيع... يقيناً أنَّكِ تتفهَّمين، آنَّا... عِديني أنَّك ستُصغين إليَّ غداً...

آنَّا، باغتمامٍ وكَدَر.

وما عساكَ تقول؟ أوَّاه، أولَم تكن كلماتي أكثرَ من كافية؟ أولَم أقل أشياء ما كان ينبغي أن تُقال؟ آه، دائماً دائماً تخدعنا الحياة وتجرفنا حتَّى عندما نريدُ الهروبَ منها!

ليوناردو، بوثبةِ أملٍ أخيرة.

أنتِ على يقينٍ، أليس كذلك؟، أنتِ على يقينٍ من أنَّه يحبُّها، من أنَّها تحبُّه.... أنتِ على يقينٍ، يا آنَّا، من غَرامهما.... أنتِ لستِ واهمةً، أليس كذلك؟ هي ليستِ الرَّيبة، هو ليس الظَّنُّ.... أنتِ مُستيقنة.... أنتِ مُستيقنة....

آنّا، متأثّرةً بنبرةِ صوتِه.

وأنت؟ وأنت؟ ألستَ على يقينٍ؟

لحظة صمت. ليوناردو يتردَّد في الإجابة.

لماذا تصمت؟ أوه، الشَّفقة مرَّةً أخرى!

ليوناردو

بصوتٍ خافتٍ، ناظراً بقلقٍ إلى الباب الأوَّل على اليسار، كأنَّه خائفٌ من وصول أحدهم.

ألِسَّاندرو.... ألِسَّاندرو هناك.... سوفَ ترينَه.... هل سوف تخبرينه أنَّك تحدَّثت إليَّ.... أنَّكِ قلتِ لي هذه الأشياء؟

آنّا

لا، لا.... اعذُرني، ليوناردو، اعذُرني! حتَّى معكَ، حتَّى معكَ كان ينبغي لي أن أصمتَ.... آه، الصَّمت.... آه كم هو قاسٍ حتَّى على أولئك الذين نبذتهم الحياة!

ليوناردو

سوفَ أراكِ، غداً؛ سوفَ أتحدَّث إليكِ، غداً.... عِديني.... سوف ألقاكِ هنا، غداً، في نفسِ السَّاعة؛ أليس كذلك؟ شكراً، يا آنّا.

يقبِّلُ يديها.

شكراً. الوداع.

يستدير نحوَ الباب الثَّاني على اليمين، يتوجَّه إليه ليفتحه، لكنَّه ما يلبث أن يُعرض عن ذلك، جائشاً برعدةٍ لا يمكن لجمها؛ يذهب إلى الباب الأوَّل، من حيث دخلَ آنفاً، ويغيبُ هابطاً الدَّرج كمثل الهارب من شيء.

آنّا

مُرهفةً السَّمع، وهي تخطو بضع خطواتٍ نحوَ مصدرِ الجلبة.

ليوناردو!... إنَّه ينزل الأدراج....

ليوناردو! ليوناردو!

تجمدُ في مكانها، لاهثةً.

يا إلهي، يا إلهي، كيف كان يرتعدُ أمامَ الباب!

المشهد الثالث

تدخلُ من ذلك الباب **بيانكا ماريًّا**، مُستغربةً.

بيانكا ماريًّا

تُنادين ليوناردو؟ ما الذي يجري؟ أين ليوناردو؟ قولي يا آنّا! أين هو؟

آنّا

لا تخافي.... لقد كان هنا، قبل هُنيهة؛ يتحدَّث معي، على شُرفةِ الإيوان.... وقد خرج، لا أعلم لأيِّ غرض.... لا أعلم أين مضى.... كنتُ أناديه لأنَّ رغبةً عارمةً في الخروج معه اعترتني على حين غرَّة.... إنَّها ليلةٌ عذبةٌ للغاية. غير أنَّه لم يسمع.

بيانكا ماريًّا

لقد اعتراني الخوف.

آنّا

لا تخافي، لا تخافي يا بيانكا ماريًّا.

بيانكا ماريًّا

كنتُ بمُفردي، في حُجرةِ اللقايا الثَّمينة: أنسِّقُ الحِليَّ حول رمَّةِ كاسَّاندرا من أجل أن يجدَ كلُّ شيءٍ مُنجَزَاً عندَ مجيئه.... لم أكن في تمامِ السَّكينة؛ كانت تنتابني بين وهلةٍ وأخرى قشعريرةٌ صغيرة.... ليتكِ ترين أقنعةَ الذَّهب تلك- كيف تكون في الليل على ضوءِ المصباح.... إنَّها تأخذُ هيئةَ وجوهٍ غرائبيَّةٍ حيَّة.... لكن، نفحةُ هواءٍ مُباغتة أطفأت المِصباح؛ ولفَّني الظَّلام؛ وفي تلك اللحظة سمعتُ صوتَكِ يُنادي باسمِ ليوناردو.... واعتراني الخَوف.

آنَا

صغيرتي!

بيانكا ماريًّا

تلتصقُ **بآنَا** بحركةٍ مفاجئة.

لديَّ خوفٌ، لديَّ خوفٌ مستمرٌّ في أعماقي يا آنَا، لا أعرفُ كُنهَه.... لَكَم أودُّ الهروب؛ يجتاحُني اندفاعٌ أحمق إلى الهروب، لا أعرفُ إلى أين، لا أعرفُ إلى أين.... هلَّا تقولين لي، هلَّا تقولين لي، يا آنَا، ماذا ينبغي أن أفعل! ساعديني أنتِ، أنتِ التي فيكِ مجملُ الخيرِ ومجملُ القوَّة، أنتِ التي تعرفين الصَّفحَ وتعرفين الذِّياد! إنِّي واضعةٌ نفسي بين يديكِ، واضعةٌ حياتي بين يديكِ اللتين هُما غايةُ الطُّهْر، اللتين تعرفانِ الحقيقة، واللتين هما مغسولتانِ بدمعي.... قولي لي ماذا ينبغي أن أفعل!

آنّا، مُلاطِفةً إيّاها بعذوبة.

اهدئي، اهدئي.... لا تجزعي. لا تخافي شيئاً. لـن يمسـسكِ أحـدٌ بسوء، يا صغيرتي. إنّني هنا؛ من أجلِ تخليصِك. كوني واثقـة، كـوني واثقة! تريَّثي بعدُ قليلاً!

بيانكا ماريًّا، باضطرابٍ مُتعاظِم.

آنّا، آنّا، لا أريد بعد الآن تركَكِ، لا أريد انفصالاً عنكِ بعد الآن! أريدُ الهروبَ معكِ، أريدُ المضيَّ بعيداً معـكِ، وأن أبقـى دائمـاً عنـدَ خاصرتِك، عندَ قدميكِ، أن أكـون أمَتَـكِ المُخلِـصة، طوعـاً لجميـعِ مشيئاتِك، أحرسُكِ مثلما يُحرَسُ مرموزٌ مقدَّس، أصلّي مـن أجلِـك، وأموتُ من أجلِك، كما المربِّية، كمـا المربِّيـة.... أنـا الـتي في قلـبي تحتشدُ كلُّ المحبَّاتِ من أجلِك! كلُّ العـذاباتِ، كـلُّ العـذابات علـيَّ خفيفةٌ في خِدمةِ آلامِك. لو أستطيع أن أفتدي بجميعِ دمائي أيَّامَ اللوعةِ والغضب هذه، لو أستطيع بكلِّ تعذيبٍ جسديٍّ شنيعٍ إنهاءَ أيِّ أثرٍ لها، - آنّا، آنّا، صدِّقيني- حينها لن أتردَّد لحظةً، لن أتردَّد لحظة.

آنّا

آه، غاليتي، كـلُّ دمائـك وكـلُّ دموعِـك لا تـستطيعُ إعـادةَ بعـثِ ابتسامة! كلُّ لُطفِ الرَّبيع لا يستطيع إعادةَ ازهـيرارِ نبـاتٍ مَـضرورٍ في الجذر. فلا تُكابدي إذن، يا بيانكا ماريًّا، لا تَألَمي للأشياء الـتي سـبقَ وتمَّت، أو التي تتمُّ الآن. أنا رميتُ كـلَّ أيّـامي وكـلَّ أحلامـي خـارجَ نفسي: - الأيّام التي مضتْ، والأحلام التي خبتْ. مـا أريـده هـو ألا يأخذني أحدٌ مأخذَ الشَّفقة، ألا يعزِّيني أحـد. أودُّ لـو أعثـر علـى ممرٍّ مُطَمْئِنٍ لقدميَّ المتشكِّكتين، على مكانٍ حيـثُ النَّـومُ والألمُ قـصيَّان،

حيثُ لا يوجدُ صخبٌ ولا تطفُّل، لا أحد يرى أو يسمع. أودُّ ألا أتكلَّمَ بعد الآن، حيثُ في ساعاتٍ محدَّدة من الحياة لا أحد يعرفُ أيَّ كلمةٍ يُستحسَنُ قولُها وأيَّ كلمةٍ يُستحسَنُ دفنُها في النَّفْس. وأريدكِ، أريدكِ، يا بيانكا ماريًّا، أن تثقي بي كما لو كنتِ تثقين بأختٍ كُبرى مضتْ بهدوءٍ بعد أن فهمتْ كلَّ شيء وغفرتْ كلَّ شيء... بهدوءٍ... بهدوء... مضتْ بعيداً... لكن ليس بعيداً جداً... تعالَي، تعالَي. لقد وعدتِني أن تقرئي لي: أتذكرين؟، آنفاً. أحضري الكتاب. أجلسيني.

بيانكا ماريًّا تقودُها إلى كرسيٍّ؛ تجثو على ركبتيها أمامَها، تأخذُ يديها.

بيانكا ماريًّا

اسمعي يا آنّا، اسمعي. لا شيء ضاعَ إلى الأبد، لا شيء مُتعذِّرٌ تعويضُه. ما كنتِ لتستطيعين أن تنطقي بصوتٍ أكثرِ عذوبةً كلماتٍ أكثر يأساً ممَّا نطقتِ... آه، أتحسبين أنّي لا أفهم؟ على كلٍّ، لا، لا، لا شيء ضاعَ إلى الأبد؛ لا شيء متعذِّرٌ تعويضُه قد وقع... لا أعرفُ أيَّ خوفٍ مُباغتٍ رماني بين ذراعيكِ؛ ورحتُ أناديكِ أنْ خلِّصيني، أنِ احميني... مِن مَهلكةٍ أجهل كُنهَها، مِن مَهلكةٍ مُبهَمةٍ تحلِّقُ فوقي دونَ أن أراها، دونَ أن أستطيعَ لها تمييزاً... إنَّني واهية؛ المخاوفُ الطِّفليَّة ما تزال تستطيعُ الاستيلاءَ على روحي فجأةً وتشويشها... اسمعي يا آنّا، اسمعي صوتَ الحقيقة. من ذا القادرُ على الافتراء قُدَّامَ جبينك؟ حين دخلتِ أنتِ إلى هناك، إلى حُجرةِ اللقايا الذَّهبيَّة، ومنحتِني قُبلةً على شفتيَّ، يقيناً أنَّكِ شعرتِ كم هُما طاهرتان شفتايَ... إنَّهما طاهرتان. بحقِّ ذكرى أمِّي، بحقِّ رأسِ أخي، أقسمُ لكِ، يا آنّا، أنَّهما ستظلَّان أبداً على هذا الطُّهرِ، مختومتَينِ بنقاءِ يديكِ.

تضغطُ بيدَي العمياء على شفتيها.

آنّا

لا تُقسمي، لا تُقسمي! إنَّكِ تأثمين بحقِّ الحياة: هذا كمن يقطفُ كلَّ ورودِ الأرض، كي لا تُهدى إلى من يشتهيها. ما النَّفع؟ ما النَّفع؟ أوَتستطيعينَ أنتِ بَتْرَ الشَّهوة؟ بلى، لقد شعرتُ كم هُما شفتاكِ طاهرتان، طاهرتان مثل النَّار؛ غير أنّي، قبلَ هُنيهةٍ خلتُ، شعرتُ كذلك بحياتَين تندفعُ إحداهما نحوَ الأخرى بكلِّ قوَّة وتحدِّقان في بعضهما عبرَ ألمي السَّاكن كما لو عبرَ بلَّورٍ يوشك أن يتهشَّم.

بيانكا ماريًّا

يا إلهي! يا إلهي! أنتِ كمن يوصدُ كلَّ الأبواب....

آنّا

إلا واحداً، يبقى مُشرَّعاً.

بيانكا ماريًّا، بصوتٍ صافٍ وحازِم.

إنّي مارَّةٌ من خِلاله.

آنّا

هو لكِ وحدكِ، هو لكِ وحدكِ: إنَّه بابُ الآتي. كوني واثقةً! تريَّثي بعدُ قليلاً!

لحظة صمت. رأسُ بيانكا ماريًّا محنيٌّ تحتَ هاجسٍ مأتميٍّ.

هل تشمِّين عبقَ الآس؟ إنَّه مُسكِرٌ كمثلِ نبيذٍ ساخن: برغمِ عذوبةِ النَّسمِ الليليِّ ما يزالُ محتفظاً بحرارته. هل تشمِّين؟ حتَّى أنا، كدتُ ذاتَ مرَّةٍ أسقطُ من الدُّوار.... كان ذلكَ في زمن الغِبطةِ الكبرى: زمنٍ بعيدٍ بعيد! كنَّا في الطَّريق إلى ميغارا[1]، على طولِ خليجِ أجانيطَس[2]. أتعرفين ذلك الشَّاطئ؟ آنذاك، كانَ أبيضَ كالملح، مرشوشاً بالآسِ وبصَنوبريَّاتٍ صَغيرة مُعوجَّة تنعكسُ صورُها في المياه الصَّافية. كانت جُنيباتُ الآس تلوح لعينيَّ الشَّطحيَّتَين وكأنَّها محارقُ تضطرمُ بلهبٍ أخضر؛ وكان البحر نقيَّاً وجديداً كمثلِ تُويجٍ تفتَّحَ للتَّو...

بيانكا ماريًّا، رافعةً رأسها بتمهُّل.

أيُّ نغَمٍ هذا الذي في صوتِك يا آنَّا! إنَّه، مِن فرطِ العذوبة، يلمس أعمق أعماقي مثل موسيقى تفوق الوصف. عندما تتحدَّثين عن جَمال الأشياء، يُخيَّلُ إليَّ أنَّ صدى أغنيةٍ لا أعرفُ كُنهها يصدرُ عن شفتيكِ. حدِّثيني بعدُ عن الأشياء الجميلة، آنَّا!

آنَّا

حدِّثيني أنتِ عن حلمِك يا بيانكا ماريًّا. إلى أيِّ بلدٍ تريدين الرَّحيل؟ إلى سيراكوزا؟... عندما جئنا إلى هنا، كنَّا نحلمُ بتمضية الرَّبيع في زاكينثوس. أراد ألِسَّاندرو اقتيادَ ليوناردو إلى زاكينثوس كي يستريح. أنا لا أعرفُ الجزيرة؛ لكن ذاتَ مساء، في أوَّل رحلةٍ لي،

---

(1) مدينة يونانيَّة تابعة لإقليم آتيكا، تعتبر بحسب الأسطورة إحدى الأقسام الأربعة لآتيكا التي كان يحكمها الملوك الأسطوريون الأربعة أبناء الملك باندیون الثاني، وكان ملكها يُدعى نيسوس، المترجم.

(2) أجانيطَس هي جزيرة تقع قبالة ساحل آتيكا، المترجم.

رأيتُها من بعيدٍ وخلتُها جزيرة المُغتبطين[1]. كان ذلك بالقُرب من ميرتيا[2].... ميرتيا!، يا له اسماً عذباً. ينبغي أن تَتَسَمَّي به.... وكانت الشَّمس قد غابت. أذكُرُ: دائرَ مدارِ المكان، تنهضُ هَضْباتٌ هائلةٌ جليلةٌ ومهيبة، مغطَّاةٌ بكرومٍ كثيفةٍ مُتَلافَّة لها الهيئةُ الخضراءُ ذاتُها التي لمروجٍ مُعشِبة؛ إنَّما مع شيءٍ من [الكَدَر][3]، ذلك أنَّ جَذوةَ النَّهار أذبلت أوراقَ العنب؛ وبين هنا وهناك، وسطَ الكروم الكَدِرة، يبرزُ صفٌّ من السَّرو الأسودِ المتفكِّر. القمرُ الدَّائريُّ، خافتٌ كمثلِ زفرةٍ على سطحِ بلَّور، مُطلٌّ من السَّماء البالغة الشُّحوب، من بين الرُّؤوس السَّهاميَّةِ للسَّرو الأسود. مِن فُرجةٍ مُنخَفَضٍ كانت تُرى، في البعيد، الصُّورة الإلهيَّةُ لزاكينثوس[4] في البحر، كأنَّها منحوتةٌ في كتلةٍ من الياقوت الأزرق بيدِ أكثر النَّحَّاتين رقَّةً ودقَّة، فوقَ إقليمٍ رورديٍّ بالكامل.... على هذه الصُّورة ما زلتُ أراها. هناكَ كان ينبغي أن نُمضي الرَّبيع. يقيناً، كنتِ لَتَجِدين هناك بُرتقالاتِك ذات الهَبرة العُصاريَّة التي تُقضَم كما يُقضَم الخُبز.... إنِّي عَطشى.

---

(1) تدعى كذلك بجزيرة الحظّ، وقد ورد ذكرها في الأدب الإغريقي منذ الشّاعر الشّفاهي هزيود على أقل تقدير، لكن أغلب الظَّنّ أنَّ أسطورتَها فينيقيَّة المصدر. تقع الجزيرة، حسب الأسطورة، في مناخٍ بالغ العذوبة حيث أنَّ أرضها تُطلعُ كلَّ ما طابَ من الخيرات دون أن يُضطرَّ الإنسان هناك إلى العمل. كانت مقصداً لكثيرٍ من أبطال الميثولوجيا الرَّاغبين بأن يعيشوا حياةً أبديَّةً سعيدة، المترجم.

(2) قرية يونانيَّة بين خليج كورينثوس وأثينا، المترجم.

(3) بدلاً من المفردة الإيطالية الدَّالَّة على صفة الذُّبول Appassito يُفضِّل دانُونتسو مفردةً أخرى قريبة منها هي Appassionato الدَّالَّة على صفة الشَّغف وتأتي أيضاً بمعنى الكَدَر والألم، وذلك لإضفاء صفة أقرب إلى المشاعر الإنسانيَّة، المترجم.

(4) جزيرة سبق التَّعريف بها، المترجم.

بيانكا ماريًّا

أنتِ عَطشى؟ ماذا تريدين أن تشربي؟

آنّا

قليلاً من الماء.

بيانكا ماريًّا

تنهضُ، تقتربُ من الطَّاولة، تصبُّ الماء في كأسٍ من الكؤوس.

هاك، إليكِ الماء.

آنّا، بعدما شربتْ.

إنَّه شبهُ دافئ.... لطالما تخيَّلتُ، بشهوةٍ عارمة، لذَّةَ الشُّربِ من عَين ماءٍ بفمٍ مُنكَبٍّ، كما تشربُ الحيوانات.... ذاتَ يومٍ سمعتُ ألِسَّاندرو يشربُ على هذه الشَّاكلة، على نُغْباتٍ طويلة؛ وقد حسدتُه. ينبغي الاستلقاء على الأرض، أليس كذلك؟، والاستنادُ على الكوعَين.... الوجهُ برمَّته يُطرَشُ بالماء، حتَّى الجبين؛ أليسَ كذلك؟ لكم أودُّ تجربةَ ذلك.... أسبَقَ لكِ وجرَّبتِه يا بيانكا ماريًّا؟

بيانكا ماريًّا

دائماً أشربُ هكذا. إنَّه حقّاً مَشربٌ لذيذ. لكأنَّ الوجهَ برمَّته يشرب. الحواجبُ تختلجُ على الماء كمثلِ فراشاتٍ توشكُ على الغرق. إنَّني أجرؤ على إبقاء عينيَّ مفتوحتَين؛ وإذ يدخلُ الماءُ في حلقي أكتشفُ في أعماقي بعض الأسرار المُذهلة. لا أستطيعُ أن أصفَ لكِ تلكَ الهيئاتِ العجائبيَّة التي تطلعُ من التَّراتيب الغريبةِ للحصى....

صوتُكِ، الآنَ، عذبٌ كمثلِ عَين ماء. كأنّني أسمعُ الماء يجري على جسدِك كما لو على تمثالٍ وسطَ نافورة....

لحظة صَمت.

ألا تظنّين، يا بيانكا ماريًا، أنّه ينبغي أن تكون سعيدةً تماثيلُ النّوافير؟ هذه التي في جَمالِها السّاكنِ والدّائم تَشيعُ روحٌ مُشرقة تتجدّدُ باستمرار. إنّها تنعَمُ، في نفسِ الوقت، بالخُمول وبالسُّيولة. في الحدائق المُنعزِلة تحسبينها أحياناً منفيّةً أو مُقصاة، لكنّها ليست كذلك؛ فجوهرُها السّيّالُ لا ينقطعُ عن التّواصلِ مع الجبال البعيدة- من حيث جاءتْ أوّلَ مرّةٍ وهي ما تزال نائمةً ومُوصَدة في كتلتِها المعدنيّة التي بلا شكلٍ ولا صيغة. إنّها تُصغي مَشدوهةً إلى الكلماتِ التي تصعدُ إلى أفواهها من أعماقِ الأرض، وليست بصمّاءَ عن مُسامراتِ الشُّعراء والفلاسفة المُنشدينَ راحةً في ذلك الملجأ، بين الظّلال الموسيقيّة حيث يؤبّدُ المرمرُ لفتةً ساكنة. ألا تبدو لكِ سعيدةً؟ حبّذا لو كنتُ تمثالَ نافورةٍ مثلها، بما أنّ لي معها صفةً مشتركة: العمى.

بيانكا ماريًا

أوه يا آنّا، إنّ لك معها أيضاً صفةً أخرى، مَنقبةُ تسكينِ اللوعة وسَعَةِ النّسيان! عندما تتحدّثين عن جمال الأشياء، ينسى من يُصغي إليكِ عذاباتِه ويؤمن ثانيةً بإمكانيّةِ الحياة، وبأنّ الحياةَ يمكن أن تصفو من جديد.

آنّا

الحياةُ يمكن أن تصفو من جديد. لا تخافي! كلُّ شيءٍ زائل، كلُّ شيءٍ هو لا شيء.... ماذا تقولُ، ماذا تقولُ كاسَّاندرا عن شؤونِ البشر؟ "إذا ما هي عوكِستْ بخَطب، فإنَّ إسفنجاً مُندَّىً بالماء كفيلٌ أن يمحوَ من تلك الخُطوبِ كلَّ أثر". لماذا لا تقرئين قليلاً؟ لقد وعدتِني أن تقرئي....

بيانكا ماريًّا

ماذا تريدين أن أقرأ لكِ؟

آنّا

تلك الحواريَّة بين كاسَّاندرا وكُورَسِ الشُّيوخ.

بيانكا ماريًّا تبحث عن كتاب إسخيلوس على الطَّاولة، شبهَ مُتأبِّية، كأنَّها مُرغمةٌ على فِعل ذلك.

هل وجدتِ الكتاب؟

بيانكا ماريًّا، فاتحةً الكتابَ مُتصفِّحةً أوراقَه.

أجل، هُو ذا.

آنّا

اقرئي قليلاً.

بيانكا ماريًّا، تقرأ.

"الكُورَس.

"شُهرتُكِ بالتَّكهُّن

عرفناها نحنُ حقَّ المعرفة؛ إنَّما ليست النُّبوءاتُ سؤلَنا.

"كاسَّاندرا.

"أوَّاه، أوَّاه، أيُّ أمرٍ جَلَلٍ يُعَدُّ؟

أيُّ حزنٍ عظيمٍ وجديدٍ

يُعَدُّ لهذي البيوتات؛ إنَّه لَحزنٌ عظيمٌ، وشنيع،

لن يحتمله البشر، ويتعذَّرُ تفاديه. والخلاصُ سيكونُ

بعيدَ المنال.

"الكُورَس.

"لا نفهمُ هذه النُّبوءات....

آنًا، تُقاطعُها.

لا، كفى. لا تقرئي بعدُ! هذا في غايةِ الكَرب. فلنستأنفْ قراءةَ *الأنتيجونه*، من الموضعِ الذي توقَّفتِ عندَه ذلكَ الصَّباح. أتذكرين؟ إنَّه الموضعُ حيث تنحني *أنتيجونه* لأوَّلِ مرَّةٍ على آلامِها. كان صوتُها مُذهَّباً كقمَّةِ سَرْوَةٍ عندَ المغيب....

بيانكا ماريًّا، تبحث عن كتاب سوفوكليس.

لا أجدُ الكتاب.

آنّا

أمنذُ ذلك الحين لم تعثري عليه؟

بيانكا ماريًّا

آه، ها هو ذا.

تفتحُ الكتاب، تبحثُ عن الصَّفحة، وتقرأ.

"الكُورَس.

"هكذا إذن، مؤتلقةً ومُمجَّدة،

ها أنتِ تمضين إلى مقرِّ الموتى؛

غيرَ ذاويةٍ من سُقمٍ شَرِه

ولا مُختارةً أضحيةَ حربٍ،

إنَّما حرَّةً، إنَّما بهيَّةً، وحدكِ

بين الفانين، تنزلينَ في هاديس.

"أنتيجونه.

"آه، أسمعُ الآنَ بكاءَ تلك البائسة،

النَّزيلةِ الفريجيَّة[1]،

ابنةِ تانتالوس[2]، فوق قمَّة سيبيلوس؛

هناكَ حيثُ علَّيقُ لبلابٍ لاصقٍ

يخنقُ نسلَها الحجريَّ؛ تلك التي

لا تنقطع الأمطارُ عنها، كما يقول البشر،

ولا الثَّلج عنها يوماً بذائب؛

بل إلى الأبد، تبلِّل مدامعُها مساربَ الحجَر.

سمعتم بها؛ أنا هي شبيهتُها، أنا التي

يدٌ ألوهيَّةٌ تحملُني إلى النَّوم....

---

(1) نسبةً إلى فريجيا وهي إقليم قديم في الوسط الغربي من الأناضول استوطنه قومٌ حكموا آسيا الصغرى بعد انهيار الامبراطوريَّة الحيثيَّة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى انهيارهم وصعود ليديا في القرن السَّابع قبل الميلاد. برع الفريجيون في الأشغال المعدنية والنحت على الخشب ويقال أنهم اخترعوا التطريز وأحجار القبور المنحوتة بروعة والمزارات التي اكتشفت بعد الحرب العالمية الثانية من قبل الحفارين الأمريكيين. ومن ضمن الممارسات الدينية كانت هناك عبادة الإلاهة سيبيل Cybele التي وصلت شهرتها إلى اليونان، المترجم.

(2) أحد ملوك فريجيا، كان ملكاً على جبل سيبيلوس وكان صديقا حميما للآلهة ينضمُّ إلى مائدتهم ولكنهم عاقبوه لعدَّة خطايا أساء فيها تفضيل الآلهة له، أوَّلُها أنَّه أعطى البشر أسرار السماء، وثانيها أنَّه أهان الآلهة بذبح ابنه بيلوبس وتقديمه لهم ليختبر قوة ملاحظتهم، وثالث أعماله أنَّه سرق الرحيق وطعام الخلود وهما طعام الآلهة وأعطاهما لأهل الأرض؛ فكان عقابه أن يظل إلى لأبد في تارتاروس مقيدا والماء تحت ذقنه وغصون الفواكه فوق رأسه حيث يظل ظمآناً جائعاً كلما أراد أن يشرب من الماء أو يأكل من الثمار تبتعد عنه، المترجم.

آنًا، تُقاطعُها.

آه، تمثالُ نيوبي[1]! قبل أن تموت، رأتْ *أنتيجونه* تمثالاً حجريًّا يتفجَّرُ فيه نبعٌ من الدُّموع الأبديَّة.... كفى، بيانكا ماريًّا. لا تقرئي كلمةً بعد هذا! يبدو لي الموتُ في كلِّ مكان. أغلقي الكتاب! اذهبي إلى الإيوان وتأمَّلي النُّجوم. إنِّي مُتعَبةٌ، مُتعَبةٌ للغاية؛ أنَّى لي يدٌ ألوهيَّةٌ تحملني إلى النَّوم أنا الأخرى....

تنهضُ وتُنادي.

---

(1) هي ابنة تانتالوس، كان لديها سبعة أبناء وسبع بنات وكانت تفخر بجمالهم وقد سخِرت من ليتو لأنَّ لديها ابناً واحداً هو أبولُّلو وابنة واحدة هي آرتميس فاستفزَّهم هذا وانتقموا من نيوبي بأن قتلوا أبناءها (قتل أبولُّلو الأبناء وقتلت آرتميس البنات) وظلت جثثهم غير مدفونة لتسعة أيام ثم دفنتهم الآلهة، وعادت نيوبي إلى وطنها وظلت تبكي حتى تحوَّلت إلى حجرٍ يواصلُ بكاءَه إلى الأبد؛ وهو ما تحدَّث عنه هوميروس في الإلياذة وكذلك أبولودوروس وإسخيلوس وسوفوكليس وأوفيد. الحجر الذي يمثل نيوبي هو من الحجر الجيري وموجود في جبل سيبيلوس غرب تركيا، وهو يشبه شكل امرأة حيث يسيلُ الماء من مسامٍّ في هذا الصَّخر ممَّا نسج عنه هذه الأسطورة. وفقاً لبعض الباحثين فإن نيوبي هي إلاهة الثلج والشتاء وأن أولادها الثلج والجليد قتلوا من قبل أبولُّلو وآرتميس بإلاحةٍ رمزيَّةٍ إلى أنَّهم يذوبون من الشَّمس في الربيع، بينما يرى آخرون أنَّها كانت إلاهة الأرض وأنَّ أبناءَها هم أعطيات الأرض من خضر وفواكه حيث تجفُّ هذه ويأتيها الصَّيف؛ ويرى بورمايستر أن الأسطورة تمثل الصراع بين أتباع ديونيزوس وأتباع أبولُّلو حيث هُزم الديونيزيُّون وطُردوا إلى فريجيا. ومثلما كانت القصَّة موضوعاً مفضَّلاً في الأدب، فكذلك الأمر في الفنِّ حيث ثمَّة مجموعة من التماثيل الرُّخامية لنيوبي وأولادها موجودة في روما في معبد أبولُّلو وهي على الأغلب تقليدٌ رومانيٌّ لعملٍ عُثر عليه عام 1583م قرب لاتيران وهو موجود الآن في متحف أوفيتزي في فلورنسا، حيث يُنسَب العمل الأصليُّ إمَّا لبراكسيتيليس أو لسكوباس، المترجم.

أيَّتها المربِّية! أيَّتها المربِّية!

لحظة صمت. لا أحد يجيب.

أيَّتها المربِّية! إنَّها لا تسمع. لعلَّها نائمة. هي الأخرى في غاية التَّعب، صغيرتي العجوز! لا أودُّ إيقاظها. أيُّ شيءٍ أعذبُ من إغفاءةٍ عميقة؟

لحظة صمت.

يا له صمتاً رهيباً، هذه الليلة. النَّسيمُ تبدَّد. ما مِن نفحةِ هواءٍ واحدة.

تبسطُ ذراعيها في الهواء.

ظنِّي، ألِسَّاندرو كذلك نائمٌ. ألا تظنِّين أنَّه نائم؟ لم يخرج من حُجرتِه مُذ دخلَها آخر مرَّةٍ. لم يأتِ أيُّ صوتِ جلبةٍ من حُجرتِه. لقد أوصدَ الباب.

لحظة صمت.

ماذا ستفعلين، الآنَ؟

بيانكا ماريًّا، جافلةً على نحوٍ خفيف.

سوف أنتظرُ أخي.

آنَّا

وحدَكِ، هنا؟

بيانكا ماريًّا

وحدي، هنا.

آنّا

تُرى أين سيكون ليوناردو؟

بيانكا ماريًّا، مُرتجفة.

أين سيكون؟ لماذا لم يرجع حتّى السّاعة؟

لحظة صمت.

إنّي خائفة.

آنّا

لا تخافي. إنّها ليلةٌ عذبة. قليلاً ويعود.

بيانكا ماريًّا

سوف أنتظره.

آنّا

أتريدين أن أبقى معكِ؟

بيانكا ماريًّا

لا، لا.... إنّك مُتعَبة. بادٍ على وجهِك أنّكِ مُتعَبةٌ للغاية.

آنّا

أتريدين اصطحابي إلى العتبة، إلى العتبة فحسب؟ لا أريد إيقاظَ المربِّية. سوف أجدُ طريقي بيُسرٍ بعد ذلك.

بيانكا ماريًّا تمسكُ يدَها وتقتادها نحوَ العتبة.

بيانكا ماريًّا

لكن كلُّ شيءٍ غارقٌ في الظَّلام.

آنّا

وما الفرق عندي؟

تتوجَّه نحوَ الظِّلال، في فراغِ الباب.

أتسمعين تنفُّسَ المربِّية؟ ليسَ هادئاً. إنَّه كَدِرٌ قليلاً. لعلَّها نائمةٌ في وضعيَّةٍ مؤلمة.... مربِّيتي المسكينة! عجوزي الغالية!

تُصغي قليلاً؛ ثمَّ تُعانق بيانكا ماريًّا.

أشكركِ. في أمان الله. دعيني أقبِّلُ عينيكِ الاثنتين. أستودعك الله. اذهبي، اذهبي في سلام! اذهبي إلى الإيوان وتأمَّلي النُّجوم.

تغيبُ في الظِّلال. **بيانكا ماريًّا** تتبعها بنظراتها لبضع لحظات، ثمَّ تدير حولَها نظرةً شاردة، كأنَّما يعتريها غمٌّ لا يُطاق. تمشي بضع خطواتٍ صوبَ الإيوان. عند أسفل الدَّرجات تُدير ثانيةً نظرتَها المُرتعبة، وهي تُراقبُ الأبواب. تصعد بعدئذٍ بتوانٍ؛ لكن، ما إن تصل إلى آخر درجةٍ حتَّى تختلجَ فرائصُها وتستند إلى العمود؛ تمكث هكذا قليلاً متأمِّلةً الليل. بغتةً تتهاوى عند قاعدة العمود، دون أيَّة جلبة، بالخفَّةِ الخرساء التي لوشاحٍ يتثنَّى؛ وفيما هي منثنيةٌ على نفسِها، تشرع في البكاء.

الفصل الرّابع

الحُجرة نفسُها حيث دارتْ أحداثُ الفصلِ الأوّل.

الإيوان الكبير مفتوحٌ، في الشَّفق.

المشهد الأوّل

يتراءى ليوناردو على شُرفةِ الإيوان وهو يتأمّل المدينةَ الميتةَ المتلفّعة بالظِّلال الغروبيَّة. لوجهه سيماءُ رجلٍ عاقدِ العزم والقرار. عيناه تتوقّدان وسطَ شحوبه الخزفيِّ، كأنّهما ملتهبتان بالحمّى. يتكلّم ويتحرّك على نحوٍ مُضطرب كمَن مُسَّ ببريق الجنون.

ليوناردو

القبور... علّها تسقطُ في أحد القبور... في الأكثرِها عُمقاً... لا، لا... ماذا لو بقيتْ حيَّةً، ماذا لو بقيتْ تتعذّب طويلاً.... آه، هذا فظيعٌ، فظيع!

يضغطُ صدغَيه بينَ قبضتيه، في مشهدِ رُعبٍ وجنون. يهبطُ الدَّرجات المُفضية إلى الحُجرة، يتحرّكُ على غير هدىً، شارداً، مُرتعداً، ومُنقاداً بتقلُّبِ خواطره المُهلِكة.

لَمِنَ المحتوم، إذن؛ لَمِنَ المحتوم... لَمِنَ المحتوم أنّه ينبغي لها أن تزول، ينبغي لها أن تزول!... آه، ليتها تندحر، ليتها تختفي، ليتها تكون بعيدةً ونائية، ليت تكون حجرتُها خاوية... خاوية! بل سوف تكون خاوية، يجب أن تكون خاوية، هذا المساء... إيهٍ لأنفاسِها، إيهٍ لأنفاسِها...

يتهاوى على أحد الكراسي، يمرّر يديه على وجهه كمَن يطردُ غيمةً، أو كمن يتوخّى رؤيةً أكثر وضوحاً.

لا سبيلٍ؛ لا سبيل إلَّا هذا. كلُّ شيءٍ قد اعتُبِرَ وقُدِّر، أليس كذلك؟ كلُّ شيءٍ قد اعتُبِر وقُدِّر. هو مغرَمٌ بها.... والأخرى تفكِّر في الموت.... وتلك اللطخةُ المتعذِّرُ محوُها عن روحي.... هاويةٌ فُتحتْ بغتةً. كلُّ شيءٍ تهشَّم بغتةً، كلُّ شيءٍ تفكَّك، من أجلِ تلك، من أجلِ تلك! إنَّها هناك، بالغة العذوبة، بالغة العذوبة؛ ومن أجلها كلُّ هذا البؤس.... لا أحد يستطيع العيش بعد الآن. لا أحد يعرف أحداً بعد الآن. إنَّها الهاويةُ قد فُتحتْ بيننا بعد أن كنَّا حياةً واحدة، روحاً واحدة!... لا سبيل إلَّا هذا؛ لا خلاص إلَّا بهذا.

لحظة صمت. ينهضُ، متبوعاً بآلامِه.

ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ سوف تأتي إلى هنا، في غضون لحظات.... آه، سوف أراها، سوف أتحدَّثُ إليها، سوف أسمع صوتَها.... ليتني على الأقل، في السَّاعةِ الأخيرة، أرى فيها الأختَ المقدَّسة! ليت عينيَّ، إذ تتأمَّلانها للمرَّة الأخيرة، تعودان نقيَّتَين! ليتني أستطيع للمرَّة الأخيرة أخذَها بين ذراعيَّ من دونِ تلك الرَّعشة.... الرَّعشةِ المَهول!... إنَّه مُغرَمٌ بها، إنَّه مُغرَمٌ بها. منذ متى؟ كيف؟ ما الذي جرى بينهما؟... آه، يا إلهي، يا إلهي، كلُّ شيءٍ مُعفَّنٌ في داخلي؛ كلُّ شيءٍ مُدنَّس.... وهذا العطش الذي يفترسُني!

يتلمَّسُ حلقَه الذي يحترق. ينظرُ إن كان ثمَّة ماءٌ للشُّرب على الطَّاولة؛ يدنو قليلاً، يسكبُ كأساً ويشربُ بلهفة. يرتجفُ، كأنَّه أصيبَ بخاطرٍ مُباغت.

آه، النَّبع!

لحظة صمت. يرتجفُ متّكئاً على الطّاولة، تحتَ برقِ ذلك الخاطرِ الجديد، بعَينَين مفتوحَتين من الدَّهشة ونافذَتَين.

تدخل **بيانكا ماريًّا** من الباب الثّاني على اليمين. وجهُها يُفصحُ عن تعبٍ مخذولٍ وغامض.

بيانكا ماريًّا

أنتَ هنا، يا ليوناردو؟ لم أعرف أنّكَ عُدت....

ليوناردو، لاجماً ارتعاشَه.

أجل، لقد عدت منذ قليل.... كنتُ على وشكِ القدومِ إليكِ؛ لكنّي حسبتُكِ نائمة.... هل نمتِ بعُمق؟

بيانكا ماريًّا

لا، لم أستطع النَّوم.

ليوناردو

لَكَم تبدين مُتعَبة!

بيانكا ماريًّا

وأنت؟

ليوناردو

أوه، أنا مُعتادٌ على السَّهر. إيهِ لـكِ! تنتظـرينني حتَّـى الفجـر، ههنا، جالسةً على إحدى الـدَّرجات! لمـاذا فعلـتِ ذلـك؟ لحظـةَ دخلتُ إلى هنـا، لحظـةَ رأيتُـكِ، راعَـني مـرأى وجهِـكِ المُـضنى والشَّاحب....

ترتعشُ في صوتِه عذوبةٌ مُباغِتة.

بيانكا ماريًّا

لقد رميتَ بصرختِهِ!

ليوناردو

لم أحسب أنَّكِ هناك، ثمَّ إنَّكِ انبعثتِ فجأةً كمثلِ طيف....

بيانكا ماريًّا

لطالما كنتُ طيفاً في ناظرَيك. إنَّني مبعثُ مخاوفِك.

ليوناردو، تائهاً.

لا، لا....

بيانكا ماريًّا، مُحتَوِشَةً يديه في يديها.

لماذا هربتَ، ليلةَ أمس؟ أعرفُ يقيناً أنَّكَ هربت....

ليوناردو

هربت؟

بيانكا ماريًا

كانت آنًا تُناديك؛ وكان صوتُها متغيِّراً.

ليوناردو

كانت تُناديني؟ لم أسمع....

بيانكا ماريًا

وقد مكثتَ في الخارج طيلةَ الليل، حتَّى انبلاجِ الفجر!

ليوناردو

كانت ليلةً في غاية الجمال؛ ولم أشعر بمُضيِّ الوقتِ وأنا أمشي. ليلةُ الانقلاب الفصليِّ قصيرةٌ. وكنتُ راغبٌ في سماعِ غناء القُبَّرات عند الفجر.... ولكن لو كان خطرَ لي أنَّكِ كنتِ في انتظاري....

بيانكا ماريًا

كنتُ أنتظرُكَ باكيةً.

ليوناردو

باكية؟

بيانكا ماريًّا، فاقدةً لِجامَ مشاعرها.

أجل، أجل، باكية، ذارفةً كلَّ دموعي، لأجلِك، لأجلِك.... أتحسب أنّي قادرةٌ على أن أحيا يوماً آخرَ على هذا المنوال؟ أتحسب أنّه من الممكن احتمال هذا العذاب بعد الآن؟ قل لي، على الأقل، ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل! خذني بعيداً، خذني بعيداً؛ أو فلنعِشْ وحدنا هنا.... سأكون طوعَ مشيئتِك في أيّة حال. أريد أن أبقى وحدي معك، كما كنّا ذاتَ يوم، في هذا المكان أو في أيِّ مكان. حيثما تشاء سوف أتبعك، دونما تشكٍّ أو تحسُّر. لكن فوراً! لكن فوراً! غداً! وإذا أنتَ لم تشأ، إذا أنتَ ماطلت، فالذَّنب سيكون ذنبكَ فيما قد يقع.... سيكون الذَّنبُ ذنبَكَ، يا ليوناردو. فكِّر مليّاً.

ليوناردو

محدِّقاً في وجهها، بشحوبٍ بالغ، وصوتٍ مخنوق.

إذن أنتِ تحبِّينه؟ قولي، قولي: إلى أيِّ حدٍّ تحبِّينه؟ إلى حدِّ الضَّياع؟

بيانكا ماريًّا، مُغطِّيةً وجهها.

أوه! أوه!

ليوناردو، كمَن به خبَل.

وهو.... هل أفصح لكِ عن حبِّه؟ متى؟ متى أفصح لك؟ أجيبي! هل تظنِّين أنتِ أنّه يحبُّكِ إلى حدِّ الموت؟

بيانكا ماريًّا، ما تزال تحجبُ وجهها بيديها.

أوه! أوه! أيُّ أسئلةٍ هذه!

ليوناردو يهمُّ بالتَّكلُّم؛ ولكنَّه يتراجع. يبتعد بضعَ خطواتٍ متردِّداً ضعيفَ العزيمة، يتطلَّعُ إلى الأبواب، يحدِّقُ في الإيوان. يلتفتُ متقدِّماً نحو شقيقته.

ليوناردو

اغفري لي. ليس في داخلي أيُّ حِقدٍ عليكِ. أنتِ لا ذنبَ لكِ.... ثمَّةَ قدَرٌ قاسٍ فوقَ رؤوسِنا؛ وينبغي أن نتحمَّلَ نهجَه الحديديَّ. أنتِ لا ذنبَ لكِ. أنتِ طاهرة؛ أليس كذلك، يا أختي؟ ولَسَوفَ تظلِّينَ طاهرة؛ لن تعرِفي أبداً أيَّ خِزيٍ أو عار.

بيانكا ماريًّا

مُستعيدةً شجاعتَها، ورامِيةً ذراعَيها حولَ عنقِه.

أجل، أجل، يا أخي. قل لي ماذا سنفعل. إنِّي واهبةٌ نفسي لكَ حالما نصيرُ وحدنا في العالَم: سوفَ أكرِّسُ حياتي لأجلِك، حينذاك. قل لي ماذا سنفعل. إنِّي على أهبةِ الاستعداد.

ليوناردو

سأقول لكِ.... لكن ليس هنا.... أتريدين الخروج؟ أتريدين الذَّهاب للجلوس هناك.... عند نبعِ بيرسيا؟

بيانكا ماريًّا

فلنخرجْ.... لكن هناكَ في الأسفل رائحةُ الآسِ بالغةُ القوَّة لدرجةٍ كدتُ أمرض معها، مساءَ أمس.

ليوناردو

هذا المساء لن تكون بالغة القوَّة، ذلك أنَّ النَّسَمَ الذي ينشرُها تبدَّد.

بيانكا ماريًّا

فلنذهبْ.

ليوناردو يبدو عاجزاً عن الحركة مِن فرطِ ما نالَه مِن لَوعةٍ وكَرب. يُجيلُ حولَه نظراتٍ قانطة يوزِّعها على كلِّ الأشياء، كما لو أنَّه يُلقي عليها النَّظرةَ الأخيرة.

ليوناردو

ألستِ مُحتاجةً.... أن تأخذي شيئاً.... من حُجرتِك؟... ألا تريدين أن تغطِّي رأسَكِ؟

بيانكا ماريًّا

لا. إنَّها أمسيةٌ حارَّة. إنَّها تبرقُ، جهةَ الخليج.

ليوناردو، خائرَ العزيمة.

عسى أن.... تُمطر.

بيانكا ماريًّا

بإذن الله! لكن، فيما مضى، لم يكن ثمَّة غيمةٌ واحدةٌ في السَّماء.

ليوناردو

ومثله اليوم، أليس كذلك؟، مِن قرية فيكتيا صعدَ موكبٌ إلى مُصلَّى النَّبي إيليا.

بيانكا ماريًّا

لقد سمعتُ التَّرانيمَ، من بعيد.... لمَ تنظر إليَّ هكذا؟

ليوناردو، مرتعشاً.

أنظرُ إلى عينيكِ المتعبَتين.... إنَّهما تُغمِّاني.... أتشعرين بالنُّعاس؟

بيانكا ماريًّا

لا، الآنَ ما عدتُ أشعرُ بالنُّعاس.... سوف أنامُ في وقتٍ لاحق، بعد أن يُبَتَّ في كلِّ شيء.... فلنذهبْ. يجب أن تخبرني.... لكن مهلاً، بماذا تفكِّر؟

ليوناردو

بماذا أفكِّر؟ أوه، محضُ ذكرى غريبة....

بيانكا ماريًّا

أيُّ ذكرى؟

ليوناردو

أوه، لا شيء.... مسألةٌ صبيانيَّة.... كنت أفكِّر في جلدِ ذلك الثُّعبان الصَّغير الذي وجدناه على الطَّريق، عندما كنَّا صاعدَين إلى ميسينا أوَّلَ مرَّةٍ.... أوه، مسألةٌ صبيانيَّة.... لا أعرف لماذا خطرت في ذهني....

بيانكا ماريًّا

إنِّي أحتفظُ به عندي، هل تعلم؟ لقد وضعتُه بين صفحاتِ كتاب، كعلامَة[1]....

ليوناردو

آه، تحتفظين به عندك....

يقترب أكثر من أخته ويُخفِض صوتَه.

أخبريني، أخبريني: منذ متى لم تَرَي آنًا؟

بيانكا ماريًّا

منذ بضع ساعات.

ليوناردو

أهيَ هناك، في حُجرتِها؟

---

(1) المقصود كعلامة توضع بين صفحات الكتاب لبيان الصَّفحة المُراد مُراجعتها أو استئناف القراءة منها، المترجم.

بيانكا ماريًّا

ظنّي أنَّها هناك.

ليوناردو

ألم تتحدَّث إليكِ أبداً.... ألم تتحدَّث إليكِ أبداً عن هذه الأشياء؟

بيانكا ماريًّا، تميل برأسِها ألماً.

بلى، بلى.... إنَّها تعلم؛ إنَّها تتعذَّب....

ليوناردو

كيف؟ كيف كانت تتحدَّث إليكِ؟

بيانكا ماريًّا

كمثل أخت، بِطيبةِ وحِلمِ أخت....

ليوناردو

هل غفرتْ لكِ؟ هل قبَّلتكِ؟

بيانكا ماريًّا

نعم....

ليوناردو، مُرتعشاً ومتردِّداً.

وهو.... هل رأيتِهِ.... منذ مساءِ أمس؟

بيانكا ماريًّا

لا.... إنَّه ليس هنا....

ليوناردو

هل أخبرتكِ آنًا.... أين تُراه مضى؟

بيانكا ماريًّا

إلى نافبليو[1].

ليوناردو

متى يعود؟

بيانكا ماريًّا

مساءً، أغلبَ الظَّنِّ: عمَّا قليل....

لحظة صمت.

لكن إلامَ تنظرُ هكذا، خلفي؟

تستدير إلى الوراء مُستغربةً، كأنَّها تتوقَّع رؤية أحدهم هناك.

---

(1) مدينة يونانيَّة كانت أوَّل عاصمة لدولة اليونان الحديثة بين عامَي 1829-1834م؛ يعود اسمها حسب الأسطورة الإغريقيَّة إلى نافبليوس الابن المحتمَل لبوسايدون، المترجم.

ليوناردو

لا شيء، لا شيء.... خُيِّل إليَّ أنَّ أحدهم يهمُّ بالدُّخول، من ذلك الباب.

يُشير بإصبعه إلى الباب المُفضي إلى مقصورات آنّا. **بيانكا ماريًّا** تُرهفُ السَّمع.

بيانكا ماريًّا

لعلَّ آنّا في طريقها إلى هنا الآن.... فلنذهبْ.

تُمسكُ بيدِ أخيها وتهمُّ أن تسحبَه نحوَ الباب المُفضي إلى الدَّرَج.

ليوناردو

آنّا آتية؟

يتبعُ أختَه، ملتفتاً برأسِه إلى الوراء، محدِّقاً في الباب الثَّاني على اليسار وهو يُفتَح.

مكتبة
t.me/t_pdf

المشهد الثاني

تظهرُ آنّا على العتبة، متبوعةً **بالمُربِّية**.

آنّا

مَن يخرجُ من الباب المُفضي إلى الدَّرَج؟

ليوناردو وبيانكا ماريًّا يتواريان دون الرَّدِّ.

مَن يخرجُ، أيَّتها المربِّية؟

المُربِّية

الأخُ مع أختِه.

آنّا

آه، إنَّهما ينزلان الأدراج....أين يذهبان؟

فيما هي تهمُّ بالتَّقدُّم بمفردها نحو الباب المفضي إلى الدَّرَج، تسارعُ **المربِّية** إلى اصطحابها. ثم تُطلُّ من العتبة لتنادي.

بيانكا ماريًّا! ليوناردو! أين أنتما ذاهبان؟

لا أحد يجيب.

بيانكا ماريًّا، أين أنتِ ذاهبة؟ أين؟

لا أحد يجيب.

هيَّا، أيَّتها المربِّية، عجِّلي، الحقي بهما....

المربِّية تغادر مسرعةً. العمياء ترتعدُ مُشوَّشَةَ الفِكر، وهي تُرهف السَّمع، في الباب.

أين يذهبان؟ لمْ يُجيباني... مع أنَّهما، يقيناً، سمعا صوتي: كانا بالكادِ نزلا الأدراج... يبدو أنَّهما يهربان... إلى أين؟... آه، يا لِوجيب قلبي!

تضعُ يدَها على قلبها. تُصغي فيما إذا كانت **المربِّية** عائدة.

لا بدَّ وأنَّه سيتحدَّث إليَّ، هذا المساء... في نفسِ السَّاعة... ماذا سيقول لي؟ ماذا يستطيع أن يقول لي؟... لكأنَّ أمراً عظيماً قد قُضي...

تسمع صوتَ خَطوِ **المربِّية** صاعدةً الأدراج.

أيَّتها المربِّية، أعائدةٌ أنتِ بمفردِك؟

المُربِّية، تدخلُ لاهثةً.

لقد لحقتُ بهما.... قالا لي إنَّهما ذاهبان إلى النَّبع.... وسيعودانِ بعدَ قليل....

آنّا

ألم يسمعا ندائي؟

المُربِّية

كانا يسيران بسرعة، كأنَّهما على عجلةٍ من أمرهما.

آنّا

أليس الوقتُ متأخِّراً؟ ألم يحلَّ المساء؟

المُربِّية

بالكادِ يُرى شيءٌ. يهبُّ نَسَمٌ ساخنٌ يرفعُ التُّراب. إنَّها تبرقُ، جهةَ البحر.

آنّا

الزَّوبعة تتحضَّر!

المُربِّية

السَّماءُ مجلوَّة. إنَّها تبرقُ في الصَّحو.

آنّا

متى يعود ألِسَّاندرو؟

المُربِّية

هذا أوانُ عودتِه.

آنّا

فلننتظرْ.

المُربِّية تُجلِسُها وتَجلسُ بجوارِها، على كرسيٍّ خشبيٍّ خفيض. تمكثانِ على هذا المنوال من دون أن تنبسا ببنتِ شفة، لوقتٍ طويل. **آنّا** مُتيقِّظةٌ وترتجفُ لأدنى جلبةٍ تَصدُر.

أتسمعين؟ أتسمعين، أيَّتها المربِّية؟ من ذا الذي يعزِفُ؟ كأنَّه صوتُ ناي.

المُربِّية

إنَّه راعٍ يعبرُ في الأنحاء.

آنّا

يا لِعَزفِه العذب! كأنَّه ناي.

المُربِّية

إنَّه نايٌ من القصب.

العمياء تُصغي إلى العزفِ للحظات.

آنّا

إنَّه لحنٌ قديمٌ يُخيَّلُ إليَّ أنّي سمعته من قبل، لا أعرف متى....

المُربِّية

لقد مرَّ من هنا، مرَّاتٍ عدَّة، هذا الرَّاعي.

آنّا

لا: يُخيَّلُ إليَّ أنّي سمعتُه في زمنٍ خارجَ نطاقِ الذَّاكرة.... كما لو أنَّكِ تسردين عليَّ الآنَ إحدى حكاياكِ القديمة، أيَّتها المربِّية. أيَّةُ أسرار، أيَّةُ أسرارٍ يحتويها صوتُ قصبةٍ صغيرة! إنَّ قلبي مُنتفخٌ، أيَّتها المربِّية، وثقيلٌ كمثلِ صخرة.... أتظنِّين أنَّهما صادفا الرَّاعي؟ أعني: بيانكا ماريًّا وأخيها.

المُربِّية

ربَّما.

آنّا، بِقلَقٍ.

كيفَ كانا؟ هل حدَّقتِ فيهما جيِّداً؟ هل حدَّقتِ في وجهيهما؟ كيفَ كانا؟

المُربِّية

لا أعرف بالضَّبط.... كيفَ ينبغي أن يكونا؟

آنّا

أكانا مُضطربَين؟ أكانا حزينَين؟

المُربِّية

بدا لي أنَّهما على عجَلةٍ.

آنّا

لكن هوَ، الأخ.... ألم تنظري إلى وجهه؟

المُربِّية

لم أدنُ منه كفاية. لقد تابعا المسيرَ في الحال.

آنّا

مَن منهما كان يسير في المقدِّمة؟

المُربِّية

كان أحدهما ممسكاً بيدِ الآخر، كما أعتقد.

آنّا

آه، أجل، كان أحدهما ممسكاً بيدِ الآخر.... وكانا واثقَي الخَطوِ؟

المُربِّية

كانا يسيرانِ على عَجَلٍ.

لحظة صمت. آنّا غارقة في التَّفكير، ومترقِّبة.

آنّا

وألِسَّاندرو لم يعُد!

المُربِّية

هذا أوانه. لا بدَّ وأنَّه قريبٌ من هنا.

آنّا، تنهضُ فاقدةً صبرَها.

اذهبي إلى الإيوان، أيَّتها المربِّية، وألقي نظرة.

المُربِّية تصعد إلى الإيوان لتستكشفَ الطَّريق.

المُربِّية

يا له نَسَماً ساخناً! لكأنَّه ينبعثُ من قلبِ تَنُّور.... يلـوحُ لي رجـلٌ على حصانِه، في آخرِ الدَّرب....

آنّا، بتوثُّب.

أهوَ ألِسّاندرو؟

المُربِّية

أي نعم، أي نعم، إنّه السيِّد. ها هوَ ذا.

تهبطُ الدَّرَجات.

آنّا

اذهبي، أيَّتها المربِّية. تأكَّدي من أنَّ كلَّ شيءٍ مُعَدٌّ في حُجرتِه. لا تعودي إن لم أناديكِ. أثمَّةَ قليلٌ من الضَّوءِ بعدُ ههنا؟

المُربِّية

لا شيءَ يُرى الآن.

آنّا

أحضري مِصباحاً.

المُربِّية تخرج من اليسار. **آنّا** تُصغي بقلقٍ فيما إذا كانت خطوات **ألِسّاندرو** ترنُّ على الأدراج.

المشهد الثالث

يدخلُ **ألِسَّاندرو**. مِن فرطِ استغراقِه في أفكارِه المكدِّرة لا ينتبه إلى حضورِ **آنَّا**. يستديرُ نحوَ حُجراتِه، صامتاً.

آنَّا

ألِسَّاندرو!

ألِسَّاندرو، يتحجَّرُ في مكانه مرتعداً.

أنتِ هنا، آنَّا؟ لم أرَكِ. الظَّلام دامسٌ هنا.

آنَّا

كنتُ أنتظرُكَ.

ألِسَّاندرو

لقد تأخَّرتُ قليلاً. على الطَّريق كان الهواء يرفعُ غباراً كثيفاً، فكان من الصَّعب المضيُّ قُدماً. إنَّه نسيمُ الصَّحراء. يبدو أنَّ المساءَ يهبطُ كمثلِ رمادٍ متأجِّج.... أين ليوناردو؟

آنَّا

لقد خرج، منذ قليل، صحبةَ أختِه.

أِلسَّاندرو، بصوتٍ متهدِّج.

ألا تعلمين أين ذهب؟

آنّا

نزلَ إلى نبعِ بيرسيبا.

تدخلُ **المُربِّية** حاملةً المصباحَ المتَّقد، لكن بَينا هي توشكُ أن تضعه على الطَّاولة، تهبُّ نفحةُ هواءٍ قويَّة فتُطفئه. البابُ الذي خلفَها ينغلقُ بعنف.

المُربِّية

آه، لقد انطفأ! ينبغي أن أوصدَ الباب المفضي إلى الأدراج. الهواءُ يَقوى.

تذهب لتوصد الباب؛ ثمَّ ترجعُ إلى الطَّاولة كي توقدَ المصباحَ المُنطفئ. ترقُبُ **آنّا** يُفصحُ عن فَزَعٍ مُبهَم. تُرهف سمعها نحوَ الإيوان المفتوح، كمن يحاولُ التقاطَ صرخةٍ قصيَّة. **المربِّية** تغادر من اليسار، موصدةً الباب خلفَها.

آنّا

أِلسَّاندرو، ادنُ شيئاً، أصغِ....

أِلسَّاندرو يدنو مضطربَ الخاطِر.

ألا تسمع؟ ألا يبدو لكَ أنَّكَ تسمع صوتَ....

صوتَ ماذا؟

آنّا لا تجيب.

إنَّها الرِّيح تصفُرُ في ظُلماتِ الأسوار وتحتَ **بوَّابةِ الأُسُود**.

آنّا

الزَّوبعة تتحضَّر؟!

أِلسَّاندرو، صاعداً بسرعة إلى الإيوان.

لا. السَّماء نقيَّةٌ تماماً. النُّجومُ بدأت بالبزوغ. مِنجَلُ القمر يلتمعُ في أعالي الحصن الأثريِّ. الرِّيح تصنعُ دَوِيّاً لا مثيل له، في مدينةِ الموتى: لعلَّها تختنقُ في فُوَهِ القبور. كأنَّه نقرُ طبولٍ متتابع. هل تسمعين؟

يهبط الدَّرَجات. **آنّا** تقبضُ على ذراعِه وهي ترتعدُ مِن جَزَعٍ لدود.

ما الأمر، يا آنّا؟

آنّا

إنِّي قلِقة.... لا أستطيعُ قهرَ القَلَق الذي يقبضُ على مِخنقي.... إنِّي أفكِّرُ في ذَينك الاثنين، عند النَّبع....

ألِسَّاندرو

بانفعالٍ مُفرِط، فاهماً غيرَ ما قيل.

لماذا؟ هل تعلمين.... هل تعلمين شيئاً؟... شيئاً ما مُريعاً؟... مَن، مَن تجزأ أن يخبركِ.... ليوناردو، ربَّما؟ هل تحدَّثَ ليوناردو إليكِ؟ كيف استطاعَ ذلك.... إليكِ أنتِ....

آنَّا، ذاهلةً.

لكن إلامَ ترمي أنت؟ ماذا ظننتَ أنت؟... لا، لا؛ هو لم يتحدَّث، هو لم يقل لي شيئاً.... أنا، أنا التي تحدَّثتُ إليه، مساءَ أمس، ههنا: أنا التي كنتُ عارفةً، عارفةً منذ زمن.... أوه، لكن بدونِ تشكُّ، بدون ضغينةٍ، يا ألِسَّاندرو....

ألِسَّاندرو

أنتِ تحدَّثتِ إليه، عن ذلك الأمر المُريع! امتلكتِ قلباً لتتحدَّثي إليه عن ذلك، آنَّا! لكن كيف؟ كيف عرفتِ، قولي، كيف عرفتِ؟ كيف استطعتِ النَّفاذ إلى سرِّه، فيما أنا نفسي حتَّى مساء أمس لم يكن لديَّ ظلُّ شكٍّ في أمره! أخبريني: كيف؟

آنَّا، دائماً أكثر ذهولاً.

سرُّه! إلامَ ترمي أنت؟ أيُّ سرٍّ؟ عن أيِّ أمرٍ مُريعٍ تتحدَّث أنت يا ألِسَّاندرو؟

ألِسَّاندرو، مرتبكاً، إذ أدركَ خطأه.

كنتُ أقصدُ....

آنّا

أثمَّةَ أمرٌ آخر؟ أثمَّةَ أمرٌ آخر؟

ألِسّاندرو

ممسكاً بيديها، ومسيطراً بكَدٍّ على الانفعال الذي يكاد يخنقه.

أصغِ إليَّ يا آنّا: أنتِ التي تُتقِنين حَملَ كلِّ ثِقلٍ مؤلِم، أنتِ التي لم تهابي يوماً الألَم وتعرفين كلَّ أحزانِ الحياة. إنّا نمرُّ بساعةٍ عسيرة، شديدة العُسر. ثمَّة زوبعةٌ تسحبُنا نحو خاتمةٍ لا أعرفُ كُنهها. نحنُ فريسةُ قوَّةٍ غامضةٍ لا تُقهَر. أنتِ تشعرين، أنتِ يقيناً تشعرين يا آنّا أنَّ هنالكَ عُقدةً فظيعةً تُشَدُّ الآن وينبغي قطعُها. لقد تحاشَينا الحديث، حتَّى هذه اللحظة، لأنَّ كلَّ كلمةٍ كانت تبدو لي مثلما لكِ عديمةَ الجدوى ووحده الصَّمت كان شكلاً للتَّراضي على المحتوم يليقُ بنا وبما كُنّاه. الآنَ كلُّ شيءٍ يتهاوى. لقد آن الأوان لينظرَ كلُّ واحدٍ منّا إلى وجهِ القَدَر.... لا جدوى في أن نغلقَ أعيننا دونَه. كلُّ ما هو حاصلٌ، هو محتومٌ. إنّي أسألكِ،إذن الحقيقةَ، يا آنّا. ما الذي جرى مساءَ أمس؟ أسألكِ الحقيقة.

آنّا

الحقيقة.... آه، إنَّها لا تنفع، لا تنفع! في ساعاتٍ محدَّدة من الحياة لا يعرف المرء أيَّ الكلمات يُستحسَنُ أن تُقال، وأيَّها يُستحسَن أن تُطمَرَ تحت الأرض.... البارحة سألتُ ليوناردو الصُّفحَ، لِما فُهتُ به؛ وكمثله أسألكَ الصُّفحَ يا ألِسّاندرو. أحسنتَ قولاً، أحسنتَ قولاً: وحده الصَّمتُ لائق. كان ينبغي ألا نقطعَ الصَّمت، لَكُنّا الآنَ خلَّصْنا أحدَهم. لكنَّه كان

هناك.... مرَّاتٍ كثيرة، مرَّاتٍ كثيرة شعرتُ بهِ يُعاني، يُعاني بوحشيَّة.... كان يبدو لي أنّي أنا وحدي سببُ جميع الغُصَّات، أنا وحدي: أنا الزَّائدة! وكانت تعتريني رغبةٌ أخويَّةٌ في مواساته، في تطييب خاطره، في أن أوضِّحَ له أنَّ كلَّ شيءٍ باتَ مفهوماً، ومحسوماً كذلك.... ومساءَ أمس لا أعرف أيَّ خضوعٍ كانَ في قلبه، عندما دنا منِّي: لا أعرف أيَّ احتياجٍ لصداقةٍ حميمة.... بدا لي أنَّه بكى قبلَ مجيئه، أنَّ شيئاً ما في قلبه ذابَ إلى الأبد.... النُّجوم كانت تبدو له فاتنةً.... آنذاك عاودتني الرَّغبة في تطييب خاطره؛ فتحدَّثتُ إليه.... حدَّثته عن تلك المخلوقة البائسة وعنك.... أردتُ أن أقتلع من روحِهِ كلَّ المرارات، كلَّ الضَّغائن الجائرة بحقِّ تلك المخلوقةِ الأثيرة التي لا ذنب لها سوى أنَّها عَشقتْ وعُشقتْ.... فحدَّثته عنها، وحدَّثته عنك، من دون تشكٍّ، من دون تذلُّل، ولكن لأمنحه بعضَ الأمل فحسب....

ألِسَّاندرو، مُرتبكاً.

بعضَ الأمل! وهو.... أتظنِّين أنَّه كان عارفاً بالأمر؟ هل بدا لكِ، يا آنَّا، أنَّه كان عارفاً بالأمر؟... هذا مستحيل! هذا مستحيل! قبل ذلك بلحظاتٍ كان يتحدَّثُ إليَّ....

آنَّا، ذاهلةً.

لم يكن يعرف؟... لم يكن يعرف؟...

يبدو، وهي تستذكر حديثَها السَّابق، أنَّها تكتشف بعض الدَّلالات التي لم تتنبَّه لها من قبل، وأنَّ روحها تستنيرُ فجأةً. هُتافُها الآن أشبه بصرخةٍ متواصلة.

آه، ربَّما!... هو، كان يقول لي أنَّه لا يفهم.... أجل، أجل.... قال لي: "أنتِ على يقين؟ أنتِ على يقين؟" بعد ذلك.... آه، ما العمل الآن؟ لكن ثمَّة أمرٌ آخر إذن، ثمَّة أمرٌ آخر.

ألِسَّاندرو يذرع الحُجرةَ جيئةً وذهاباً، كمن يبحثُ عن مهربٍ ما ولا يجدُه.

ألِسَّاندرو، بصوتٍ خفيضٍ، محدِّثاً نفسَه.

بعدَ أن أفضى إليَّ بذلك!...

آنَّا

الآنَ، قل لي أنتَ الحقيقةَ، يا ألِسَّاندرو! إنِّي أسألكَ الحقيقة.

ألِسَّاندرو، يدنو منها ثانيةً.

ثمَّ ماذا فعلَ هو؟ بعد ذلكَ، ماذا فعل؟ أينَ مضى؟

آنَّا

خرجَ، هربَ.... عرفتُ من أختِه أنَّه عاد هذا الصَّباح مع انبلاجِ الفجر.... حتَّى انبلاجِ الفجر مكثَتْ هي تنتظره....

ألِسَّاندرو

الهروب، الهروب... يبدو أنَّه لم يعُد في الإمكان شيءٌ سوى الهروب...

يخطو جيئةً وذهاباً، عاجزاً عن اتِّخاذ أيِّ قرار.

آه، عندما سينظرُ واحدُنا في عينَي الآخَر....

آنّا، مُلِحَّةً.

لكن قل لي أنتَ الحقيقة، الآن!

أِلسّاندرو

وقد خرجا معاً.... نزلا إلى النَّبع.... منذ متى؟

آنّا

قبلَ عودتِكَ بدقائق معدوداتٍ.

أِلسّاندرو

معاً.... معاً.... إلى النَّبع....

انفعاله يتزايد لحظةً بعد لحظة.

وكانا معكِ هنا، قبل أن يخرجا.... وماذا قالا؟

آنّا

لا، لقد دخلتُ إبَّانَ كانا ينزلان الأدراج.... لقد ناديتُهما، لكن لم يُجيباني.... ثمَّ أرسلتُ المربِّية في إثرهما....

أِلسّاندرو

إذن؟

قالا إنَّهما نازلان إلى النَّبع قليلاً، سيعودان بعد قليل.... لكن قُل لي، قُل لي!...

تقبضُ على ذراع **ألِسَّاندرو** فيما هو يهمُّ أن يصعد إلى الإيوان. هكذا، يصعدان كلاهما إلى هناك؛ يغيبان في الظِّلِّ وهما متَّجهان نحوَ الدَّرابزين. بعد بضع ثوانٍ يعود **ألِسَّاندرو** بمفردِه إلى الحُجرة. مُنصاعاً لحافزٍ غريزيٍّ يركضُ نحو الباب، يفتحه وينزل الأدراجَ بتهوُّر. العمياء تبرزُ من الفضاء الذي بين العمودَين، مرتعدةً من الهلع، وهي تلحقُ بزوجها.

ألِسَّاندرو! ألِسَّاندرو!

ما مِن مُجيب. تتلمَّسُ الفراغ، حتَّى تعثر على أحد العمودين؛ ومستندةً إليه تنزلُ أوَّلَ درجةٍ، ثمَّ الأخريات.

ألِسَّاندرو!... لقد اختفى.... ها أنا وحدي.... آه، ربِّي، هَبني أنتَ النُّور!

مُقتفيةً تيَّارَ النَّسَمِ السَّاخن الآتي من الباب المُشرَّع على مصراعيه، تمضي حتَّى تبلغ العتبة؛ ثمَّ مستندةً إلى إحدى الدَّعامات، تخطو خطوةً نحوَ الأدراج؛ تغيبُ في الظِّلِّ.

الفصل الخامس

مكانٌ مُنعزلٌ ووحشيٌّ، عندَ غَورٍ تشكَّلَ بين السَّفح الأصغر لجبلِ إيبيا وبين جانبِ القلعة الذي لا يمكن بلوغُه. جُنَيباتُ الآسِ تنبثقُ وسطَ الصُّخور الوعرة وعلى جوانب الأطلال العملاقة. مياه نبعِ بيرسِيا المنبجسة من بين الصَّخر تتجمَّعُ في تجويفٍ يشبه الجُرن: من حيث تسيلُ بعدئذٍ وتضيعُ في المَجرى الصَّخريِّ الوعر. من قلب العُزلةِ البائدة، والمشغولة بغموض الليل، تُسمَع قرقرةُ الينابيع الخالدة.

مشهدٌ مُفرَد

على حافَةِ النَّبع، عندَ أسفل أجَمَةِ آسٍ كثيرةِ الأفراخ، يتمدَّدُ جُثمان **بيانكا ماريًّا**؛ الوجه نحو السَّماء، صارمٌ، وناصِع. الثَّوبُ المبتلُّ يلتصقُ بالجسد؛ جُمَّة الشَّعر الغزيرة تلفُّ الوجهَ على هيئةِ لِفاعاتٍ طويلة؛ الذِّراعان ممدودتان بإزاء الخاصرتَين؛ القدمان مُتَضامَّتان مثلما في التَّماثيل الضَّريحيَّة التي تضَّجع على الأقواس. **ألِسَّاندرو**، جالساً على حَجَر، بِمِرفقَين مُتَّكئينِ على الرُّكبتَين وصدغَين بين راحتَي اليدَين، يحدِّقُ في الميتة، صامتاً، في سكونٍ مُرعِب. في الجهة المُقابلة، **ليوناردو** واقفٌ على قدميه، ومستندٌ إلى صخرةٍ عظيمة، تتشبَّكُ أصابعُه بها بين تارةٍ وأخرى، متشنِّجةً وقانطة كأصابع غريقٍ على صخرةٍ ناتئةٍ من قلب اللُّجِّ. في هذا الصَّمتِ القاتل لا يُسمَع إلَّا قرقرةُ المياه والهبوبُ المتقطِّعُ للرِّياح على الآسِ الذي يتأوَّدُ له. فجأةً، ينفصلُ **ليوناردو** عن الصَّخرة ويتقدَّمُ للرُّكوعِ عند جُثمان الشَّقيقة، منحنياً كأنَّه يهمُّ أن يلمُسَه.

ألِسَّاندرو

لاجماً إيَّاه عن ذلك بحركةٍ فوريَّة وبصرخةٍ مُحتدَّة.

لا تَمسَسها! لا تَمسَسها!

ليوناردو، مُتراجعاً، دون أن ينهض.

لا، لا، لن أمَسَّها.... إنَّها لك، إنَّها خاصَّتُك....

لحظة صمت. ليوناردو يتأمَّل الجُثمان بألمٍ لا يوصَف وبحُبٍّ يتجاوزُ حدودَ البشر. يبدو أنَّ الهُلاسَ يُغيرُ على كيانه. صوتُه يزدادُ كلمةً بعد أخرى بُحَّةً وتمزُّقاً، حتَّى لكأنَّه صوتُ شخصٍ آخر.

أتظنُّ أنت، أتظنُّ.... أنِّي قد أدنَّسُها إذا ما مَسَستُها؟... أبداً، أبداً.... إنَّني الآنَ نقيٌّ: إنَّني تامُّ النَّقاء.... لو أنَّها تنهضُ الآن، لكانت مشتْ على روحي كما لو على بساطٍ من الثَّلجِ الطَّاهر.... لو أنَّها تعود إلى الحياة، لصارت أفكاري لأجلها نقيَّةً مثل الزَّنبق، مثل الزَّنبق.... آه، من يستطيعُ، على وجهِ الأرض، أن يدَّعي عشقَ مخلوقٍ بشريٍّ مثلَ عشقي لهذه؟ حتَّى أنتَ، حتَّى أنتَ لا تعشقُها كما أعشقُها أنا!... ما مِن عِشقٍ يُضاهي عِشقي، في الأرض.... فلتكنْ روحي سماءً تسجِّيكِ أيَّتها الميتة العذبة....

صوتُه تارةً يعلو، هادراً ومُضطرماً، مع تعاظمِ هذياناتِه؛ وينخفضُ تارةً مصحوباً بارتعاشةٍ عذوبةٍ بالغة.

مَن، مَن ذا الذي صنَعَ لأجلها ما صنعتُ؟ هل امتلكتَ أنتَ الشَّجاعة لتقومَ بهذا العملِ الفظيعِ بُغيةَ تخليص روحِها من الخَوفِ الذي كادَ أن يخنقَها؟ آه، أنتَ أحببتَها، أنتَ أحببتَها بكلِّ ما فيكَ من قوَّة، لأنَّها هكذا ينبغي أن تُحَبَّ، ولكنَّكَ لم تعلم، لم تعلم أيَّ روحٍ

كانَ لديها.... كلُّ عذوباتِ الأرض وكلُّ الجمالات –الجمالات التي أنتَ نفسكَ لم تحلم بها بَعد- كانت تكمن في روحِها.... كان يبدو في الصَّباحات، وهيَ تصحو، أنَّ جميع أنفاس الرَّبيع كانت تمرُّ على روحها، تُلطِّفُها، وتفتِّحُها مثلَ زهرة.... كان يبدو في المساءات أنَّ كلَّ عذوبات النَّهار تبقى عالقةً في روحِها كما لو في مِنخَلٍ وكانت هي تمزجُها معاً لأجلي، لكي تقدِّمها لي كما يُقدَّمُ رغيفٌ من الخبز.... آه، على هذا المنوال، على هذا المنوال، دأبتْ طويلاً على أن تغذِّيني؛ بهذا الخبزِ كانت تغذِّيني، في ختامِ كلِّ نهارٍ من نهاراتي.... كانت تعرف كيف تحوِّلُ أوهى ابتسامةٍ إلى فرحٍ عظيم.... فكانت أصغرُ غِبطاتي تتوسَّعُ وتكبرُ في روحِها إلى اللانهائيِّ، إلى اللانهائيِّ، كمثلِ دائرةٍ في المياه السَّاكنة، حتَّى تمنحني الوهمَ بفرحٍ عظيم.... آه لكنَّكَ لا تعلم، لا تعلم أيَّ روحٍ كان لديها.... ما مِن مخلوقٍ استطاعَ أن يُشبهها أو يضاهيها، على وجهِ الأرض.... لم يكن ثمَّةَ قطرةٌ مُرَّةٌ واحدةٌ في كلِّ دمائها.... منذ قليلٍ....

يصمتُ قليلاً، مُنتفضاً كمثلِ رجلٍ مريضٍ جسدُهُ يتلوَّى بأوجاعٍ حادَّةٍ لا تُطاق.

.... منذ قليلٍ.... كانَت كلُّ طراواتِ حياتِها تترقرقُ في شَعرِها، تحتَ يدي....

يرتعدُ بعنفٍ، جاثياً على الأرض، حتَّى أنَّ **السَّاندرو** ينهضُ ويهمُّ أن يتقدَّمَ نحوَه، لكنَّه يبدو عاجزاً عن الحركة، فيسقطُ على الحجرِ من جديد.

آهٍ عندما انحنتْ فوقَ الماء لتشرب.... وسمعتُ أوَّلَ نَهلةٍ تجري في حلقِها.... بدا لي أنَّها كانت تشرب من قلبي، وأنَّ في تلك النَّهلةِ يعبرُ كلُّ ألمٍ عظيم، كلُّ كينونةٍ خجولة، كلُّ عرفانٍ، كلُّ ذكرى، ومعها يعبرُ وجودي بأكمله.... فارغاً، فارغاً، وأعمىً كنتُ عندما انقضضتُ عليها.... كان الموتُ ممتطياً كتفيَّ وكانَ يهمزني بركبتيهِ الحديديَّتين.... العالَمُ انهارَ في عينيَّ.... ألفُ دهرٍ.... هوى في لحظة.... ووجدتُني ههنا فوقَ الحجر.... وفي المياه التي كانت ما تزال مضطربةً مِن تخبُّطنا، انتشرَ شَعرُها.... انتشرَ شَعرُها حوالَي رأسِها المائل.... آه، مَن، مَن ذا الذي صنَعَ لأجلها ما صنعتُ؟... لقد رفعتُها، تأمَّلتُ وجهها.... "كان وجهُها بأكملِه ينبضُ وسطَ شَعرِها مثلَ قلبٍ عنيف"- هكذا، هكذا قالت آنَّا مساءَ أمس: هي التي طوَّقَتْها بذراعيها، وشعرتْ بها تنبضُ بين يديها.... لقد رفعتُها، تأمَّلتُ كيفَ يتوقَّفُ وجهها عن النَّبض إلى الأبد، رأيتُ كيفَ يهوي وجهُها البارد.... أسدلْتُ بأصابعي هذه جفنَيها على مُقلتيها.... آه ما أعذبهما زهرَتين مُسدلَتَين على زهرَتين.... وامَّحت تلك الوصمةُ من روحي؛ صرتُ نقيّاً، تامَّ النَّقاء. كلُّ قداسةِ حبِّي الأخويِّ الأوَّل عادت إلى روحي مثل سَيلٍ من النُّور.... مُرسَلٍ ما يزالُ، مِن لدنها عبرَ الموت!... لكي تُحَبَّ على هذه الشَّاكلة، قتلتُها؛ لكي تستطيعَ أن تُحِبَّها هكذا تحتَ عينيَّ، أنتَ الذي لن تنفصلَ عنِّي بعد الآن، أنتَ المُحرَّرُ الآن من كلِّ ألَمٍ ومن كلِّ تأنيب، لأجل هذا، لأجل هذا قتلتُها.... أوَّاه يا أخي، أوَّاه يا أخي في الحياة وفي الممات، المتَّحد بي، المتَّحد بي أبداً، في دم الذَّبيحةِ التي قدَّمتُها لك.... انظر إليها، انظر إليها! لَهيَ في غايةِ الكمال؛ الآنَ الآنَ بلغتْ درجةَ الكمال. الآنَ يمكنُ أن تُعبَدَ مثل مخلوقٍ ألوهيٍّ.... في

أعمق قبرٍ من قبوري سوفَ أمدُّها وسأضعُ حوالَيها جميعَ لقاياَيَ الذَّهبيَّة.... إليكِ، إليكِ أنتِ يُهدى كلُّ ما يبرُق، إليكِ دائماً يُقرَّبُ كلُّ شيءٍ نقيٍّ.... أيَّتها المعبودة! آه أيَّتها المعبودة! ليتَ نستطيعُ بكلِّ دمائنا إيقادَ وجهكِ الأصفر من جديد، لِوهلةٍ واحدةٍ فحسب، لكي تفتحي لِوهلةٍ واحدةٍ عينَيكِ، لكي تَرَي وجهَينا، لكي تسمعي صراخَ هُيامِنا وآلامِنا.... آهٍ يا أختاه! آهٍ يا أختاه!

ينحني فوقَ القتيلة، يناديها بصرخاتٍ متكرِّرة وممزِّقة للرُّوح، مادَّاً يديه المرتعدتين نحوَ وجهها الأصفر المائل بسكون وسطَ عفراتِ شَعرِها المبتلَّة. **ألِسَّاندرو** الذي لم يعد يحتمل ذلك الصُّراخ ينهضُ من مكانه، يمرُّ أمامَ قدَمَي الجثَّة، ويتقدَّمُ نحو صديقه، ينحني عليه، يضع كفَّاً على جبينه كي يتحسَّسَ تلك الحمَّى، وليهدِّئ ذلك الهذيان الذي هو أوَّلُ الجنون. **ليوناردو** يتخفَّفُ قليلاً من آلامِه بفضلِ تلك اللمسةِ. التَّشنُّج الفظيع في أعصابِه يتراخى قليلاً؛ صوتُهُ يذوي.

دعني أقبِّل قدميها، قدميها الصَّغيرتين....

يتجرجرُ نحوَ قدمَي الجثَّة وينحني بجبينه عليهما، يمكثُ على هذا المِنوال بضعَ لحظات. **ألِسَّاندرو** أيضاً يركعُ، بالقرب منه. في الأثناء، يُسمَع نحيبُ النَّبع. **ليوناردو** يرفعُ جبينَه، ويتأمَّلُ بعينَين ثابتتين القدَمَين الخاويتَين من كلِّ حياة.

ذاتَ يومٍ كانت على شاطئ البحر، جالسةً على الرِّمال، رُكبتاها تحملان ذقنها الصَّغير؛ وبَينا كانت تحلمُ أحلامَها العذبة، كانت غدائرُ شَعرِها الطَّليق تلفُّ قدميها الأكثر طراوةً من وُرَيقةٍ غضَّة. كان البحرُ يغفو أمامَها، كمثل غُلامٍ بريءٍ، بأنفاسِه الخفيفة....

لحظة صمت. **ليوناردو** يرتعد، إذ تُداهمُه ذكرى أخرى.

آهٍ لذلك اليوم الملعون، أمامَ النَّار....

يغطِّي وجهَه براحتَيه، وينحني ثانيةً حتَّى يلامس جبينُه الأرض.

المغفرة! المغفرة!

لحظة صمت. **اِلسَّاندرو** يستديرُ باضطرابٍ جهةَ الصُّخورِ التي مِن بينها تنفتحُ الدَّرب.

اِلسَّاندرو، ينهضُ على قدميه.

ثمَّةَ خَطوٌ! خُيِّلَ إليَّ أنِّي أسمع صوتَ خَطوٍ، يجيءُ مِن هناك، مِن جهةِ الدَّرب.... اسمع!

ليوناردو هو الآخَر ينهضُ على قدميه، مرتعباً. كلاهما يصيخان السَّمع، حابسَين أنفاسَهما.

لا. ربَّما توهَّمتُ ذلك.... ربَّما هو صوتُ الرِّيح بينَ جُنيباتِ الآس.... أو حجرٌ ما تدحرَجَ إلى الوادي....

ليوناردو

لستُ متيقِّناً.... قلبي يضربُ بعنفٍ كبير، حتَّى أنَّه لَيُديرُ رأسي ويمنعني من سماعِ أيِّ صوتٍ آخَر....

اَلسَّاندرو يتقدَّم صوبَ الصُّخور ويُرهف السَّمع مترقِّباً. ليس يُسمَع سوى النَّحيب الأبحِّ لعيون الماء.

اَلسَّاندرو

يعود إلى صديقه الذي يحدِّقُ في الجنَّة، ويهزُّه.

ما نحن بفاعلَين الآن؟ ينبغي أن نحملها بعيداً عن هذا المكان.... أين نذهبُ بها؟ أنحملُها إلى البيت؟ آه، وأنَّا.... وأنَّا.... ماذا نقولُ لها؟

ليوناردو، شارداً، ينظرُ حوالَيه.

يا إلهي.... أنَّا.... أنَّا.... إنَّها تنتظرني.... لقد وعدتني.... لقد وعدتني.... مساءَ أمس....

اَلسَّاندرو

بماذا وعدَتك؟

ليوناردو

بأن تنتظرني، بأن تنتظرني....

ألِسَّاندرو

بأن تنتظرك؟ أين؟ ولماذا؟

ليوناردو

كانت تفكِّرُ في.... كانت تريد أن....

ألِسَّاندرو

تريدُ أن؟...

ليوناردو

تريدُ أن تختفي.... تختفي....

ألِسَّاندرو

آه!

لحظة صمت. كلاهما ينظران، غريزيّاً، جهةَ الدَّربِ المنفرجِ بين الصُّخور. يُسمعُ في الأثناء نحيبُ النَّبع.

ماذا نقول لها؟ ما نحن بفاعلَين، الآن؟.. أتظلُّ أنتَ هنا؟... إنِّي ماضٍ.... ماضٍ لأحضِرَ.... غطاءَ السَّرير....

ليوناردو، مخنوقاً برعبٍ عظيم.

لا، لا، لا تمضِ، لا تتركني وحيداً.... فلنبقَ هنا، لنبقَ هنا بعضَ الوقت!

ولكن آنّا.... آنّا....

يجفلُ مرتعداً ويصيخُ السَّمع.

أحدهم قادمٌ، أحدهم يقترب... ثمَّةَ خَطوٌ! سمعتُ وقعَ خَطوٍ!... آه، إنْ تكن هي.... ينبغي إخفاؤها.... فلنحملها إلى هناك.... بينَ جُنَيباتِ الآس، في الأجَمَة المُلتفَّة.... ليوناردو، ألا تسمعني؟

يهزُّ **ليوناردو** الذي بدا وكأنَّه تحوَّلَ إلى حجر.

فلنحملها إلى هناك، بين جُنَيبات الآس.... سوفَ أرفعُها أنا مِن ناحِ الكتفَين.... على مهلٍ! على مهل!

ينحني ليرفعَ الجثمان، مِن ناحِ الرَّأس، فيما ينحني **ليوناردو** ليرفعه مِن ناحِ القدَمين. في تلك اللحظة يُسمع من جهةِ الدَّرب صوتُ العمياء.

آنّا، من بين الصُّخور، ليست مرئيَّةً بعد.

بيانكا ماريًّا! بيانكا ماريًّا!

يتركان الجثمانَ على الأرض؛ ينتصبان وعلى وجهيهما صُفرةُ الموت، مُتحجِّرَين من الرُّعب، عاجزَين عن الإتيانِ بأيَّة حركة.

بيانكا ماريًّا!

العمياء تظهر من بين الصُّخور، لوحدِها، متحسِّسةً طريقها في الظِّلال. بما أنَّها لم تلقَ جواباً، تخطو بضعَ خطواتٍ إلى الأمام، بقلقٍ يائس.

أِلسَّاندرو! ليوناردو!

تتقدَّم مقتربةً شيئاً فشيئاً من الجثمان، تكادُ تلمسهُ بقدمِها، بينما الاثنان في مكانهما عاجزان عن الإتيان بحركة، أو عن النُّطقِ بكلمة.

أِلسَّاندرو

في اللحظة التي تكاد فيها قدمُ آنَّا تلمس الجثمان.

توقَّفي! توقَّفي، آنَّا!

لكنَّ آنَّا أحسَّتْ بالجسدِ الخاملِ مُضطجعاً عندَ قدميها. تنحني فوقَ الميتة، بذهول، جاسَّةً إيَّاها بيدَيها، إلى أن تبلغَ الوجهَ، والشَّعرَ الذي ما يزال مُبلَّلاً بمياهِ الموت. تقشعرُّ كأنَّ بها ألف حُمَّى، لِصقيعِ هذا الجسد الذي لا يُضاهيه أيُّ صقيع. تُطلِقُ صرخةً بالغةَ الحِدَّة، كأنَّها تلفظُ معَها كلَّ أنفاسِها.

آنَّا

آه!... إنِّي أرى! إنِّي أرى!

* * *

النِّهاية

صدرَ لأمارجي

شعر:

"ن"، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2008.

بِيرودجا: "النَّص- الجسد"، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2009.

مِلاحاتٌ إيروسيَّة، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2011.

وردةُ الحيوان، حواريَّة حب شعريَّة مع الشَّاعر الإيطاليَّة ماريَّا غراتسيا كالاندروني، دار التَّكوين، دمشق، 2014. (صدر بالإيطاليَّة عن دار تزونا كونتمبورانيا، روما، 2015).

ترجمات:

أفكار، جاكومو ليوباردي، هيئة أبو ظبي للتُّراث والثَّقافة، مشروع كلمة للترجمة، أبو ظبي، 2009.

الأعمال الأدبيَّة، ليوناردو دافنشي، دار التَّكوين، دمشق، 2015.

الآثار الشِّعريَّة الكاملة لدينو كامبانا، أناشيد أورفيَّة وقصائد أخرى، دار التَّكوين، دمشق، 2016.

مَن يوسِّعُ ليَ البحر، ميكِلِ كاكَّامو، دار التّكوين، دمشق، 2016.

شجرة القنفذ والرّسائل الجديدة، أنطونيو غرامشي، دار التّكوين، دمشق، 2016.

خبزٌ ونبيذ وقصائدُ أخرى، هولدرلِن، دار التّكوين، دمشق، 2016.

جسدٌ وسماء، بيير باولو بازوليني، دار نينوى، دمشق، 2016.

البحرُ المُحيط، أليسّاندرو باريكُّو، منشورات المتوسّط، ميلانو، 2017.

واحدٌ ولا أحد ومِائة ألف، لويجي بيراندِللو، منشورات المتوسّط، ميلانو، 2018.

مكتبة
t.me/t_pdf

La città morta
Gabriele D'Annunzio

ألا تظنّين، يا بيانكا ماريًا، أنّه ينبغي أن تكون سعيدةً تماثيلُ النّوافير؟ هذه التي في جَمالِها السّاكنِ والدّائم تَشيعُ روحٌ مُشرقة تتجدّدُ باستمرار. إنّها تنعَمُ، في نفسِ الوقت، بالخُمولِ وبالسُّيولة. في الحدائق المُنعزِلة تحسبينها أحياناً منفيّةً أو مُقصاة، لكنّها ليست كذلك؛ فجوهرُها السّيّالُ لا ينقطعُ عن التّواصلِ مع الجبال البعيدة- من حيث جاءتْ أوّلَ مرّةٍ وهي ما تزال نائمةً ومُوصَدة في كتلتِها المعدنيّة التي بلا شكلٍ ولا صيغة. إنّها تُصغي مَشدوهةً إلى الكلماتِ التي تصعدُ إلى أفواهها من أعماقِ الأرض، وليست بصمّاءَ عن مُسامراتِ الشُّعراء والفلاسفة المُنشدينَ راحةً في ذلك الملجأ، بين الظّلال الموسيقيّة حيث يؤبّدُ المرمرُ لفتةً ساكنة. ألا تبدو لكِ سعيدةً؟ حبّذا لو كنتُ تمثالَ نافورةٍ مثلها، بما أنّ لي معها صفةً مشتركة: العمى.

ISBN 978-9933-543-64-8